سيرة

آن فاديمان

من كتبي

اعترافات قارئة عادية

ترجمة: د. رشا صادق

من كتبي

اعترافاتُ قارئةٍ عاديّة

سيرة

Author: **Anne Fadiman**

Title: **Ex Libris: Confessions of a Common Reader**

Translated by: **Dr. Rasha Sadek**

Cover Designed by: **Majed Al-Majedy**

P.C.: **Al-Mada**

First Edition: **2020**

اسم المؤلف: آن فاديمان

عنوان الكتاب: من كتبي - اعترافاتُ قارئةٍ عاديّة

ترجمة: د. رشا صادق

تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

الناشر: دار المدى

الطبعة الأولى: **2020**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © 1998 by Anne Fadiman-
Published by arrangement with Farrar, Straus and Giroux, NewYork.

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
dar@almada-group.com
+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدّماً.

هذا الكتاب مسؤولية الكاتب، والآراء الواردة فيه لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

This book is the writer's responsibility, and the opinions contained therein do not necessarily reflect the opinion of the publisher.

آن فاديمان

من كتبي

اعترافاتُ قارئةٍ عاديّة

ترجمة : د. رشا صادق

قالوا عن اعترافات آن فاديمان

- في فردوس الأدب الذي يرسم حياة آن فاديمان، الهواء محض دلالاتٍ، الهوامش تتدفّق، والأفعى الوحيدة في العشب هي غلطة طباعية.

The New York Times Book Review / رينيه تورسي

- لا يتعلّق الأمر بسعة ثقافتها فقط (وهي بالفعل كذلك)، ولا أنّ كلمة غريبة سترسلها فوراً إلى القاموس (وهو ما سيحصل)، بل بأنّ الكتاب سيجعل قلبها يخفق سواء كان وصف ليڤي لمعركة بحيرة ترايزمن أم قصّة الأرنب الشرّير الغاضب لبياتريكس بوتر.

المهم أنّها ستجعل قلوبنا تخفق أيضاً.

The Economist

- تكشف آن فاديمان عن ملذّات حياتها الببليوغرافيّة، حيث القراءة والكتابة وجمع الكتب ليست مجرّد مهنة، وإنّما ولعٌ دائمٌ مدى الحياة يعزّز شخصيّتها وتتشاركه مع زوجها الشغوف مثلها بالكتب.

Elle

- 18 مقالة أنيقة طريفة هزليّة تمجّد متع القراءة ومباهج اللغة ونزواتِ (أجل هناك البعض منها) المهووسين بالكتب... منوّعات ساحرةٌ غير تقليديّة عن حبّ الأدب.

Entertainment Weekly ميغان هارلان

- لمّاحة، ساحرة، ومكتوبة بلغة ذات طراز رفيع... منذ وقتٍ طويل لم يوضع على مكتبي كتابٌ ممتعٌ هكذا. مجموعة مقالاتٍ تحتفي بحبّ الكتب ستعجب أيّ شخصٍ نقّب يوماً في متجر كتب مستعملة ويحبّ الكتب.

London Observer روبرت ماك روم

- الهديّة المثاليّة لكلّ من يحبّ الكتب. لكن لا تتفاجؤوا عندما يفتح المستلم الهديّة ويغفل عن كلّ ما حوله.

Richmond Times-Dispatch آن لويد مِريمان

- رسالة إعجابٍ من عاشقةٍ للكتب إلى المؤلّفين الذين أدخلوا الفرح إلى قلبها.

UTNE Reader آندي شتاينر

- تذكرة جذلى أنّ المهووسين بالكتب قد يُجبَرون على اعتزال العالم، لكنّ حياتهم ثريّة وسعيدة.

The News & Observer (Raleigh) جي. بيدار زاين

- كلّ مقالةٍ هي مثالٌ للوضوح والثقافة غير المتعالية.

The New Yorker

- كتابٌ صغيرٌ جميل ستفرح بالترحيب به في عائلتكَ والاحتفاظ به طويلاً.

The New York Times

مجموعة لطيفة من المقالات عن علاقة حبّ بين العائلة وبين الكتب والكلمات، شغفٌ انتقل من والديها إلى أطفالها.

USA Today

آن فاديمان

من كتبي EX LIBRIS

آن فاديمان هي محرّرة في مجلة أميركان سكولار *The American Scholar* وحازت جائزة National Book Critics Circle Award عن كتابها الأوّل «*سيمسك بك الشبح وتسقط*» / FSG، 1997

نُشرت مقالاتها في مجلّات عديدة: نيويوركر، وهاربرز لايف، ونيويورك تايمز، وسڤيلايزاشن، من بين أخريات.

انتقلت وعائلتها حديثاً من نيويورك إلى غربي ماساشوستس.

أيضاً بقلم آن فاديمان:

سيمسك بك الشبح وتسقط

إهداء المؤلّفة:

إلى كليفتون فاديمان
وآنّالي ويتمور جاكوبي فاديمان
اللذين شيّدا قلاع أسلافي.

الفهرس

قالوا عن اعترافات آن فاديمان 5

تقديم 15

زواجُ المكتبات 17

متعة الكلمات الطويلة..... 25

اللّامنتمي 33

لا تسخر من السونيتة..... 41

لا تؤذِ كتاباً..... 49

النساء الحقيقيّات 57

ماذا عن الإهداء؟ 65

أنت هناك 73

معضلة لها/ له..... 81

أدخِلْ جزرة..... 89

حبرُ الأبديّة 97

شهيّة طيّبة..... 103

لا جديد تحت الشمس..... 111

بالطبع، سأقرأ الكاتالوج..... 119

قلاعُ أسلافي..... 127

شركاء في العنف..... 135

إمبراطوريّةُ كُتبِ رئيس الوزراء 143
نثرٌ مستعملٌ 149
اقتراحات للقراءة 155
شكر وتقدير 157

تقديم

عندما كان الروائيّ الإيرلنديّ جون مَغاهِرن طفلاً، فكّت أخواته شريط إحدى فردتي حذائه وخلعنها من قدمه وهو يقرأ. لم يرمش. ألبسنه قبّعة قشّ، لم يتحرّك. فقط عندما أزحن الكرسيّ الخشبيّ الذي كان يجلس عليه «استيقظ من الكتاب» كما وصف الموقف.

«الاستيقاظ» هو الكلمة الصائبة. هناك أطفالٌ يستيقظون من الكتاب كما من نومٍ عميقٍ، سابحين بصعوبةٍ عبر طبقات الوعيّ نحو واقعٍ لا يبدو حقيقيّاً بقدر حالة الحلم التي تركوها خلفهم. أنا كنتُ هكذا. ولاحقاً، كمراهقةٍ تأثّرتْ بهاردي[1]، لم أقع مرّةً في الحبّ دون أن أصنّف عشّاقي إلى دايمِن أو كليم. فيما بعد، كنتُ أخلدُ للنوم مع زوجي (كليم بالطبع) في سريرٍ غاصٍّ بالكتب آملة أن تشبه ولادة طفلي الأوّل مشهدَ ولادة كيتي في «*آنا كارنينا*»، لكن خائفةً في الوقت نفسه أن تكون كمخاض السيّدة ثينغامي في «*أوليڤر تويست*».

بدأتُ بتأليف «من كتبي» عندما خطر لي كم يبدو غريباً أنّنا نكتب عادةً عن الكتب كأنّها آلات تحميص خبز. هل هذا النوع من آلات التحميص أفضل من ذاك؟ هل هي الصفقة الأفضل لقاء 24،95 دولاراً؟ لكن لا ذكر لمشاعري تجاه محمصتي تلك بعد عشر سنواتٍ من الآن، ولا للمشاعر العذبة التي قد أكنّها لمحمصتي القديمة.

1- Thomas Hardy 1840-1928 روائي وشاعر إنجليزي فكتوري. الشخصيتان من رواية «عودة ابن البلد» وفيها يتخلّى كليم عن مهنته كصائغ في باريس ليعود إلى مسقط رأسه الريفيّ مجسّداً الحياة التقليدية بما فيها من قيم وسعادة، بينما دايمن زوج ابنة عمّه زير نساء ومهندس سابقٌ يتحسّر على حياة المدينة المثيرة. م

هذا النمط من القرّاء كمستهلكين - وهو نمطٌ شجّعتُه شخصيّاً في العديد من مراجعاتي للكتب- يحذف تحديداً ما أعتبره جوهر القراءة: ليس رغبتنا بشراء كتابٍ جديدٍ، بل كيف نحافظ على علاقتنا مع كتبنا القديمة، الكتب التي عشنا وإيّاها سنين، الكتب التي أصبحت ألوانها وملمسها ورائحتها مألوفةً كبشرة أطفالنا.

في «*القارئ العاديّ*» كتبت ڤيرجينيا وولف (التي استعارت عنوانها من عبارةٍ لساموبل جونسون في *حياة غراي*): «كلّ تلك الغرف أشدّ تواضعاً من أن يطلق عليها مكتباتٌ، لكنّها غاصّة بالكتب، يمارس القراءة فيها أفرادٌ منعزلون». «القارئ العاديّ» - تقول - «يختلف عن الناقد وعن العالِم، ثقافته أدنى، ولم تغدق عليه الطبيعة مواهب فذّة. إنّه يقرأ من أجل متعته الخاصّة لا لينشر معرفة أو يصحّح آراءً سائدة. وقبل كلّ شيء، تُوجّهه غريزةٌ أن يخلق لنفسه من مختلف الأجزاء والتفاصيل التي يمرّ بها نوعاً من التكامل».

هذا الكتاب هو التكامل الذي حاولتُ خلقه من آلاف الأجزاء والتفاصيل التي تغصّ بها رفوفي المثقلة بالكتب.

كُتِبت المقالاتُ الثماني عشرة خلال أربع سنوات، وهي تتوالى هنا وفق تاريخ كتابتها، عدا المقالتين الأخيرتين اللتين عكستُ ترتيبهما. تركتُ الوقائع كما كانت، ويليام كانستلر على سبيل المثال كان ما يزال على قيد الحياة عندما كتبتُ عنه، لذا بقي حيّاً في هذه الصفحات.

خلال السنوات الأربع، ولد ابني، وتعلّمت ابنتي القراءة، أصبحنا أنا وزوجي في الأربعين، أمّي في الثمانين وأبي في التسعين من عمره. أمّا كُتبنا - حتّى التي طُبعتْ قبل أن نولد بوقتٍ طويلٍ- فدائمة الشباب، تسجّل مرور الزمن الحقيقيّ وتذكّرنا بكلّ المناسبات التي قرأناها فيها أو أعدنا قراءتها، عاكسةً العقود الماضية.

تكتبُ الكتبُ قصّة حياتنا، وعندما تتراكم في مكتباتنا (ورفوف نوافذنا، وتحت أريكتنا، وفوق ثلّاجتنا) تصبح بحدّ ذاتها فصولاً من تلك القصّة... وكيف لا؟!

زواجُ المكتبات

منذ عدّة أشهرٍ قرّرنا أنا وزجي أن ندمج كتبنا معاً. لقد عرف واحدنا الآخر منذ عشر سنواتٍ، سكنّا معاً منذ ستٍّ، ونحن زوجان منذ خمسٍ. يتعايش كوبا قهوتنا المتنافران وديّاً جنباً إلى جنبٍ، نتبادل ارتداء القمصان وكذلك الجوارب عند اللزوم. كما أنّ أسطواناتنا الموسيقيّة اختلطت دون قصدٍ منذ زمنٍ طويل: مجموعتي من موتيتات[1] جوسكان دي بري[2] تحاول كسبَ ودِّ ألبوم *أسوأ أغاني جيفرسون إيربلاين*[3] الخاصّ بجورج، وهذا برأينا يُثري الطرفين. أمّا مكتبتانا فبقيتا مستقلّتين: تحتلّ مكتبتي معظم الجهة الشماليّة من شقّتنا، بينما مكتبةُ جورج الجهةَ الجنوبيّة.

نحن متّفقان أنّه من غير المنطقيّ أن يشقى «*بيلي باد*» في نسختي على بعد أربعين قدماً من «*موبي ديك*» في نسخة جورج، لكن أيّاً منّا لم يحرّك ساكناً للتقريب بينهما.

لقد تزوّجنا في هذه الشقّة ونحن ننظر إلى روايتي مِلفيل المحتجزتين بالاتّفاق كلٌّ في جهة، متعاهدَين أن نصون حبّنا في السرّاء والضرّاء، في الصحّة والمرض - تعاهدنا حتّى أن نتخلّى عن جميع الناس - لا

1- Motet نمط من موسيقا عصر النهضة يُغني فيه كورال متعدّد الطبقات الصوتية باللاتينية والفرنسية دون مصاحبة موسيقية. م

2- Josquin Des Prez 1450/ 55-1521 مؤلف موسيقي فرنسي من عصر النهضة. من أعماله المشهورة آفه ماريا. م

3- Worst of Jeffesron Airplane ألبوم صدر عام 1970 ضمّ أشهر أغاني فرقة الروك جيفرسون إيربلاين. م

مشكلة. لكن من حسن حظّنا أنّ *كتاب «الصلوات العامّة»* لم يذكر شيئاً عن تزويج مكتبتينا والتخلّص من النسخ المكرّرة وإلّا لكان عهداً بائساً سيتسبّب على الأرجح بعرقلة الزواج وإيقاف المراسم. كلانا أنا وجورج كاتبان وكلانا نبدي تجاه كتبنا العواطف التي يخصّ بها الناس رسائل عشّاقهم القدامى.

التشارك بسريرٍ ومستقبلٍ هو لعبة أطفالٍ مقارنة بتشارك نسختي من *«الأعمال الكاملة لـ دبل يو. ب. ييتس»* التي تلوتُ منها مرّةً قصيدة «تحت صخور بين بولبن» على قبر ييتس في باحة كنيسة درَمْكليف، أو التشارك بنسخة جورج من *«أشعارٍ مختارة لـ ت. إس. إليوت»* التي تلقّاها كهديةٍ في الصفّ التاسع من أعزّ أصدقائه روب فرانسوورث مذيّلةً بعبارة: «أطيب الأمنياتِ من جيري تشيڤرز». جيري تشيڤرز أحدُ ألقاب روب، وكان حارس مرمى بوستن برونز. الإهداء بالتالي فريدٌ من نوعه يربط بين ت. إس. إليوت وبين هوكي الجليد للمرّة الأولى في التاريخ.

ممانعتنا للجمع بين روايتي ملڤيل تعزّزها اختلافاتٌ أساسيّة في الشخصيّة. جورج تجميعيٌّ، وأنا تفكيكيّة. كتبه تختلط بشكلٍ ديمقراطيّ موحّدةً تحت الراية العامة لكلمة: أدب، بعضها موضوعٌ عاموديّاً، وبعضها أفقيّاً، والبعض الآخر موجودٌ فعليّاً *وراء* كتبٍ أخرى، بينما كتبي مقسّمةٌ بدقّةٍ وفق الموضوع وجنسيّة المؤلّف.

ككلّ الذين لا يمانعون الفوضى، يثق جورج فطريّاً بالأشياء الثلاثيّة الأبعاد موقناً أنّ ما يبحث عنه سيبرز من تلقاء ذاته، وهو ما يحصل غالباً. أمّا أنا فأؤمن أنّ الكتب، والخرائط، والمقصّات، وبكرات الأشرطة اللاصقة كلّها متشرّدة لا يمكن الوثوق بها لأنّها ترتحل إلى وجهاتٍ مجهولةٍ ما لم يتمّ احتجازها في أماكن معيّنة، لذلك مكتبتي منظّمةٌ دائماً بصرامةٍ.

بعد خمس سنواتٍ من الزواج وطفلٍ، قرّرنا أنا وجورج أخيراً أنّنا مستعدّان لمستوى أعمق من الشراكة هو توحيد المكتبتين. ليس واضحاً

كيف سنجد قاسماً مشتركاً بين مقاربته للمكتبة بطريقة الحديقة الإنجليزيّة ومقاربتي بطريقة الحديقة الفرنسيّة. مبدئيّاً كانت الغلبة لي مفترضةً أنّ جورج يستطيع إيجاد كتبه إن كانت مرتّبة بطريقتي بينما لا يمكنني ذلك في حال العكس، فاتّفقنا أن نرتّب الكتب حسب موضوعاتها: تاريخ، علم نفس، طبيعة، رحلات،...إلخ، وأن نقسّم فئة الأدب حسب جنسيّة المؤلّف.

صحيحٌ أنّها خطّة متكلّفة أكثر من اللزوم من وجهة نظر جورج، لكنّه يتفق معي على كونها أفضل نسبيّاً من طريقة حدّثنا عنها أصدقاؤنا: أجّر معارف لهم منزلهم بضعة أشهرٍ لمصمّم ديكور، ليكتشفوا حين عودتهم أنّه أعاد ترتيب مكتبتهم بالكامل وفقاً لحجم الكتب وألوانها... بعد ذلك بفترة وجيزة لقي حتفه في حادث سيّارة. أعترف أنّه عند سماعنا القصّة، أجمع كلّ الجالسين إلى طاولة العشاء على أنّ العدالة أخذت مجراها.

الكثير من القواعد للانطلاق!

اعترضتنا مشكلة عندما أعلنتُ خطتي لترتيب الأدب البريطانيّ زمنيّاً، وترتيب الأدب الأميركيّ أبجديّاً حسب المؤلّف. دافعتُ عنها كالتالي: بما أنّ مجموعتنا من الأدب البريطانيّ تغطّي ستّة قرونٍ، ترتيبها وفق تاريخ تأليفها سيسمح لنا بمراقبة ازدهارها عبر ذلك المجال الزمنيّ. الڤكتوريّون *جماعةٌ* واحدة، فصلهم أشبه بتشتيت عائلة. إضافةً لذلك، سوزان سونتاغ كانت ترتّب *كتبها* زمنيّاً، وصرّحت في مقابلة مع *النيويورك تايمز* كم يزعجها وضعُ بينشون[4] إلى جوار أفلاطون. من ناحية أخرى، تنتمي مجموعتنا من الأدب الأميركيّ بمعظمها إلى القرن العشرين، وأغلبها حديثٌ جدّاً لدرجة أنّ ترتيبها وفق تاريخ كتابتها يتطلّب تمييزاً إعجازيّاً.

فإذن... الترتيب الأبجديّ هو الحلّ.

4- Thomas Pynchon روائي أميركي من مواليد 1937 تمتاز رواياته بالكثافة والتعقيد. آخرها صدرت عام 2013 بعنوان: «الحافة النازفة». م

في النهاية، استسلم جورج. ليس اقتناعاً بفكرتي، بل حرصاً منه على السلام الزوجيّ. حصل موقف مزعجٌ جدّاً وهو ينقل مجموعتي من أعمال شكسبير من خزانةٍ إلى أخرى حين هتفتُ: «احرص على ترتيبها زمنيّاً!».

- تقصدين أنّنا سنعتمد ترتيباً زمنيّاً ضمن *مؤلّفات كلّ كاتبٍ* أيضاً؟! شهق. لكن لا أحد يعلم بالضبط متى كتب شكسبير مسرحيّاته!

- حسناً. زجرته. من المعروف أنّه كتب «*روميو وجولييت*» قبل «*العاصفة*». أريد لهذا أن ينعكس على رفوفنا.

قال جورج إنّها كانت إحدى المرّات القليلة التي فكّر فيها جدّيّاً بالطلاق.

استغرق نقل الكتب عبر خطّ ماسون- دكسون[5] الفاصل بين رفوفي الشماليّة ورفوف جورج الجنوبيّة قرابة الأسبوع. في كلّ ليلةٍ كنّا نضعها في صفوفٍ على الأرض، ندمجها معاً ثمّ نرتّبها على الرفوف من جديد. ممّا يعني أنّه توجّب علينا القفز طيلة الوقت فوق مئات المجلّدات كي نتنقّل من الحمّام إلى المطبخ إلى غرفة النوم. لامست أيدينا - بل لاطفت حقيقة - كلّ كتابٍ نملكه. في بعض الكتب عثرنا على إهداءاتٍ من عشّاق قدامى أو منّي أنا أو جورج أحدنا للآخر. بعضها كان كبسولة زمن: وجدتُ في نسختي من «*كتّاب بريطانيا العظام*»[6] قائمةً بالشعراء المطلوب دراستهم لامتحان الأدب الإنجليزيّ النهائيّ في ختام مرحلتي الثانوية عام 1970، بينما سقطت بطاقة بريديّةٌ عليها طابعٌ بقيمةٍ عشرة سنتات من نسخة جورج من رواية «*على الطريق*»[7].

5- Mason Dixon line خط حدودي رسم بين عامي 1763-1767 برعاية تشارلز مايسون وجيريمايا ديكسون لفضّ النزاع الحدودي بين ولايات ميريلاند، بنسلفانيا، وديلاوير. لاحقاً أصبح يعرف بشكل غير رسمي بالحدّ الفاصل بين الولايات الأميركية الشمالية والجنوبية. م

6- Major British Writers صدر عام 1959 من تحرير جورج باغشو هاريسون. م

7- On the road رواية للكاتب الأميركي جاك كيرواك صدرت عام 1957 مستوحاة من رحلاته عبر الولايات المتحدة الأميركية والأشخاص الذين التقاهم. م

خضنا نقاشاتٍ حاميةٍ حول أيّ الكتب يجب أن توضع معاً وأين، بينما كانت تتراكم في أكوام على الأرض. لقد عشتُ في الشقّة تسع سنواتٍ قبل أن ينتقل جورج لِلسكن معي، خلال تلك الفترة شغل الأدب الإنجليزيّ المنطقة التي يراها الجميع: الجدار المواجه للمدخل. (أمّا على الاتجاه المعاكس في طيف الخصوصيّة فهناك إلى يمين مكتبي رفّ صغيرٌ مع باب، يختبئ خلفه كلٌّ من «*الكامل في حمية سكارديل*» و«*دليل البريد*»). برأي جورج، يستحقّ الأدب الأميركيّ لا الإنجليزيّ موقع الصدارة ذاك.

موافقتي على فكرته تعني تقديم نفسي للعالم كأحد أتباع أ. جي. ليبلنغ[8] وليس والتر باتر[9]، وتساوي اعترافي أنّ الصحفيّة التي هي أنا الآن قد غيّبتْ للأبد الأكاديميّةَ التي ظننتُ أنّي سأكونها. لكنّها الحقيقة، فضلاً عن أنّ مدخلنا يجب أن يقدّم زوجي للعالم كما يقدّمني على السواء... لذلك رضختُ، إنّما مع غصّةٍ في حلقي.

على الرفوف بجوار سريرنا ابتكرنا فئة جديدة: كتبٌ من تأليف الأصدقاء والأقارب. فكرةٌ اقتبستها من صديقةٍ كاتبة (وضعتُ أعمالها على تلك الرفوف) سبقتني إلى ذلك قائلةً إنّ وجود كلّ أولئك الذين تحبّهم مجتمعين حولها يمدّها بشعورٍ طيّب. تردّد جورج في البداية شاعراً أنّها إهانةٌ على سبيل المثال أن يُنفى مارك هِلبرِن[10] من جماعة الأدب الأميركيّ حيث كان يسترخي جنباً إلى جنبٍ بالترتيب الأبجديّ مع إرنست همنغواي، وإجباره على الاضطجاع مع بيتر ليرانجِس الذي كتب تحت اسم نسائيّ مستعارٍ ستّة عشر جزءاً من «*نادي جليسات الأطفال*». (في النهاية غيّر جورج رأيه، مقتنعاً أن بيتر ومارك قد يجدان الكثير ممّا يتبادلان الحديث عنه).

8- A.J. Liebling 1904-1963 صحفيّ أميركي كان يكتب بشكل رئيس في النيويوركر. م

9- Walter Pater 1839-1894 كاتب مقالات وأديب وناقد فنّي بريطاني. م

10- Mark Helprin روائي وصحفي أميركي معاصر من مواليد 1947. م

مع نهاية الأسبوع حانت المهمّة الأصعب: فرز الكتب التي نملك منها نسختين واختيار واحدةٍ نحتفظ بها. أدركتُ أنّ كلّاً منّا يملك عدّة نسخٍ من كتبنا المفضّلة «في حال» انفصلنا عن بعض. إن تخلّى جورج عن نسخته المهترئة من رواية «*إلى المنارة*»[11] وودّعتُ أنا نسختي ذات الغلاف الورقيّ الورديّ الزاهي من «*الأزواج*» والتي قرأتها مراراً وتكراراً في أواخر مراهقتي (حين كانت استكشافات جون أبدايك حول تعقيدات الحياة الزوجيّة تبدو مثيرةً للغاية) لدرجة أنّها تمزّقت إلى ثلاثة أقسامٍ يجمعها رباط مطّاطيّ- حسناً، سيكون علينا أنا وجورج أن نبقى معاً مدى الحياة. جسور العودة احترقت.

بالمجمل، وجدنا ما يقارب خمسين كتاباً مزدوجاً. قرّرنا أن نبقي النسخ ذات الغلاف الكرتونيّ المقوّى ما لم تتضمّن ذاتُ الغلاف الورقيّ العاديّ هوامشَ. احتفظنا بنسختي من «*ميدل مارش*» التي قرأتها عندما كنتُ في الثامنة عشرة وفيها وثّقتُ أولى محاولاتي الواعدة في النقد الأدبيّ (ص 37: غرور، ص 261: هراء، ص 294: يعمع)، واحتفظنا بنسخة جورج من «*الجبل السحريّ*»، ونسختي من «*الحرب والسلام*».

رواية «*نساء عاشقات*» أثارت جدالاً مريراً: قرأها جورج عندما كان في السادسة عشرة، وأصرّ أنّ نسخته الأصليّة من إصدار بانتام هي الوحيدة القادرة على إرضائه عندما يعيد قراءتها بغلافها الورقيّ الذي يصوّر لوحةً تبعث على الهذيان لامرأتين، إحداهما عاريةٌ تماماً والأخرى شبه عارية. أنا قرأتها عندما كنتُ في الثامنة عشرة، صحيحٌ أنّني لم أدوّن يوميّات ذلك العام لكنّي لستُ بحاجةٍ لتذكيرٍ أنّني فقدتُ فيه عذريّتي. هذا واضحٌ من الهوامش التي كتبتها على نسختي من إصدار الڤايكنغ (ص18: العنف بديلٌ عن الجنس، ص154: ألم الجنس، ص159: القوّة الجنسيّة، ص158: جنس).

11- To The Lighthouse رواية لڤيرجينيا وولف صدرت عام 1927. م

ماذا كان بمقدورنا أن نفعل غير أن نعلن هزيمتنا نحن الاثنين ونحتفظ بالنسختين؟!

بعد مجهودٍ ختاميّ امتدّ لما بعد منتصف الليل، انتهينا. كلّ النسخ المكرّرة إضافة إلى مئة كتابٍ اخترناها بمشقّةٍ باتت مكوّمةً بعنايةٍ وجاهزةً لتُشحن إلى جمعيةٍ خيريّة. تبادلنا قبلة ونحن نلهث ونتعرّق تحت روايتي ملقيل اللتين ظفرتا أخيراً بالاجتماع معاً.

تتحلّى مكتبتنا الآن بترتيبٍ دقيقٍ، لكنّها مختنقة نوعاً ما، تماماً مثل حياتي قبل جورج. شيئاً فشيئاً، بدأ أسلوبه يسيطر عليها خفيةً دون أن أمانع كليّاً. كما تتلطّف صرامة الخطوط المستقيمة لمنزلٍ جديدٍ بإضافة أعشابٍ تهزّها الريح هنا ودراجةٍ ثلاثيّة العجلات مقلوبةٍ هناك، كذلك تلطّف نظامنا الجديد الخالي من العيوب بفضل التحالف الوثيق بين زوجي وبين الإنتروبيا. بدأت الطاولات جانب السرير تنوء تحت ثقل المجلّدات الجديدة التي لم نرتّبها بعد، وتغيّر توزيعُ أعمال شكسبير. ذات يوم وجدتُ أنّ «*الإلياذة*» و«*انحطاط وسقوط الإمبراطوريّة الرومانية*» قد وجداً طريقهما إلى قسم الأصدقاء والأقارب. حين واجهت جورج بهذا الدليل صالب إصبعيه قائلاً: حسناً، كنّا أنا وغيبون[12] متقاربين للغاية، هكذا.

منذ أسبوعين، وبينما كان جورج مسافراً خارج المدينة، قرّرتُ أن أعيد قراءة «*رحلاتٍ مع تشارلي*». اصطحبتُ معي إلى السرير الكتاب الذي قرأته للمرّة الأولى عندما بلغتُ السابعة عشرة. رحتُ أستعيدُ الشعور المألوف لنسختي المكرمشة القديمة بغلافها الورقي الذي يصوّر جورج شتاينبك جالساً متقاطع الساقين إلى جوار كلبه البودل، إلى أن وصلتُ إلى الصفحة 192. هناك، عند مقطعٍ حول انحسار غابات الصنوبر في كاليفورنيا، وبخطّ زوجي في شبابه - بإمكاني تمييز ذلك الخطّ في أيّ مكان- كُتبَ تعليق حزين: «لماذا ندمّر البيئة؟!».

12- Edward Gibbon 1737-1794 مؤرّخ بريطاني، من أهم أعماله تاريخ انحطاط وسقوط الإمبراطورية الرومانية. م

لا بدّ أنّنا كنّا نملك نسختين متطابقتين من الكتاب، واحتفظنا بنسخة جورج.

كتبه وكتبي قد أصبحت: كُتُبنا.

حقّاً، نحن الآن زوجان.

متعة الكلمات الطويلة

عندما كنّا طفلين أنا وأخي الأكبر كيم، اعتاد والدي أن يقصّ علينا حكاياتٍ عن دودة كتبٍ اسمه والي.

والي – الدودة المتلوّية الصغيرة – يرتدي قبعة بايسبول حمراء، ولا يحبّ الكتب فحسب، بل يلتهمها. فشلت الكلمات الأحاديّة المقاطع التي وجدها في معظم كتب الأطفال في إشباع نهمه، لذلك انتقل إلى القواميس التي وفّرت له قائمةً أغنى.

كتب أبي «*والي دودة الكلمات*» عندما كنتُ في الحادية عشرة، وفيه يسرد بعض مغامرات بطلنا المعجميّة حيث يتذوّق لقيماتٍ دسمةً مثل *Syzygy* (خطّ الزيج)[1]، و *Ptarmigan* طائر الترمجان[2] – كان طعمه فظيعاً في البداية إلى أن أسقطَ حرف P– وكلمة *Sesquipedalian* التي بدت له كأنّها تعني «كلمة طويلة»، وهي كذلك في الواقع.

بتأثيرٍ من والي، أمضينا أنا وأخي سنواتٍ نتنافس للفوز بإيجاد أطول كلمة. كانت الغلبة لكيم بكلمة *باراديمتيلأمينوبنزألدهايد* – وهو مركّب كيمائيّ بشع الرائحة – كنّا نترنّم بها على إيقاع الغسّالات الإيرلنديّات[3].

1- ارتصاف الأجرام السماوية على خطّ واحد مثل القمر –الأرض –الشمس في أثناء الكسوف. م

2- طائر يعيش في الدائرة القطبية كثيف الريش. حرف P لا يُلفظ في الاسم الإنجليزي. م

3- الجزء الأوّل من سويت ألّفه عام 1947 الأميركي ليروي أندرسن. م

واحدةٌ من الخيبات الكبرى لانتهاء طفولتي كانت تنامي صعوبة الوصول إلى تخمةٍ بالكلمات المتعدّدة المقاطع بفخامة تخمة والي. ببساطةٍ لا يوجد ما يكفي من الكلمات الجديدة أو هكذا كنتُ أعتقدُ إلى أن قرأتُ في الصيف الماضي كتاباً عنوانه: «*النمر في المنزل*»، ألّفه عام 1920 كارل ڤان ڤيشتن- وهو روائيٌّ وناقدٌ لموسيقا الجاز، أسلوبه النثريّ شديد التكلّف - يدور موضوعه عن القطط: القطط في الأدب، في الفنّ، في التاريخ، في الموسيقا...إلخ. في تلك الأثناء كنتُ أكتب بدوري مقالاً عن القطط وقرأتُ مؤلّفاتٍ عديدة تصبّ في الاتجاهات ذاتها، انطلق كتّابها من افتراض وحيدٍ حول قرّائهم: أنّهم مهتمّون بالقطط، عكس ڤان ڤيشتن الذي افترض أنّ قرّاءه ضليعون بالأساطير الكلاسيكيّة والكتاب المقدّس، ويستطيعون قراءة التدوين الموسيقيّ (ضمّن في كتابه جزءاً من نوطة فوغا القطّة لدومينيكو سكارلاتي)، بالإضافة إلى كونهم ملمّين بالمئات من الكتّاب، والفنّانين، والمؤلّفين الموسيقيين الذين أشار إليهم بألقابهم فقط، وكأنّ ساتشيني وتينييرز مألوفان مثل باخ ورامبرانت بالضبط.

من ناحية أخرى، ما أثار انفعالي لأقصى درجةٍ وجعلني أحسّ بالغباء في آنٍ واحد هو مفردات ڤان ڤيشتن. لا أتذكّر آخر مرّةٍ صادفني فيها هذا العدد من الكلمات التي لا أعرفها. بانتهاء الكتاب، كنتُ قد سجّلتُ اثنتين وعشرين كلمة لا أجهلها فحسب، بل لا أتذكّر أصلاً *رؤيتها* من قبل، وكأنّها مفرداتٌ من اللغة الاسكندناقية القديمة.

إليكم القائمة:

Monophysite, Mephitic, Calineries, Diapason, Grimoire, Adapertile, Retromingent, Perllan, Cupellation, Adytum, Sepoy, Subadar, Paludal, Apozemical, Camorra, Ithyphallic, Alcalde, Aspergill, Agathodemon, Kakodemon, Goetic, opopanax[4].

إنّها تليق بأناكوندا وليس مجرّد دودة كلماتٍ.

4- سترد مقابلاتها باللغة العربية تباعاً في المقالة ونهاية الفصل. م

كارل ڤان ڤيشتن الذي يتذكّره التاريخ كأحد أرباب نهضة هارلم الثقافيّة[5] أكثر من كونه نصيراً للقطط، كان يستعمل في مراسلاته مع أصدقائه من مرتادي الصالونات الأدبيّة قرطاسيّةً تحمل شعار «الكثير بالكاد يرضيني»، ولم يحظَ ولعه بالكلمات الغرائبيّة (وأيّ شيءٍ آخر يتجاوز الحدّ) بصيتٍ حسن.

بأيّ حال، أشكّ أن كتابه كان سيتخطّى أربع طبعاتٍ لو اعتبر قرّاؤه الأصليّون مفرداته أحجياتٍ مثلي. قائمة كلماتي تعدّ صعبة لكن ليست عصيّةً على الفهم بالنسبة للقرّاء المثقّفين غيرِ الاختصاصيين في عام 1920. الكثير منهم كانوا ملمّين باللاتينيّة والإغريقيّة اللتين توفّران دلالاتٍ اشتقاقيّة لنصف القائمة، علاوةً على أنّ معظم الكلمات التي تبدو عتيقة الطراز اليوم لم يكن قد علاها الغبار بعد منذ خمسةٍ وسبعين عاماً. على سبيل المثال، السيبوي Sepoy والسوبادار Subadar – وهما رتبتان من رتب الجنود الهنود الذين خدموا في الجيش البريطانيّ– كانتا متداولتين في الإدارات البريطانيّة، الكامورا Camorra – تنظيمٌ سرّيٌّ مثل المافيا– كان ناشطاً بخطف السيّاح في نابولي، المِرشّة Aspergill هي فرشاةٌ استُخدمتْ روتينيّاً في الكنيسة الكاثوليكيّة لرشّ الماء المقدّس، وكان الناس ما يزالون يغتسلون بصابون مصنوعٍ من زيت المُرّ Opopanax وهو نبتةٌ عطريّة.

متحسّرةً على العالم المفقود الذي شكّلته مفردات ڤان ڤيشتن، أردتُ اختبار أفراد عائلتي بهذه الكلمات لأعرف إن كان بقيّة أتباع والي السابقين ملمّين بها أكثر منّي. (للقارئ الذي يرغب بتعذيب نفسه، معاني المفردات التي لا ترد في سياق المقالة موجودة في الصفحة 32).

متحمّسة للفكرة، كنتُ على وشك إخضاع أصدقائي أيضاً لمسابقتي المثيرة عندما قال ناشري – الذي لم تكن لديه رغبة أن يصبح ضحية بدوره–: تمهّلي آن. لا يحبّ كلّ الناس الاختباراتِ كما تحبّينها أنتِ.

5- حركة فكرية اجتماعية فنية ازدهرت في عشرينيات القرن الماضي متركّزةً في شارع هارلم وعرفت باسم حركة الزنوج الجديدة. م

وجهة نظرٍ محقّة! في يفاعتي، لم نكتفِ أنا وعائلتي بالتجوّل متشدّقين بالكلمات العديدة المقاطع، بل كنّا نعتبر أيّ نوعٍ من المنافسات الفكريّة بمثابة السرّ المقدّس في الكنيسة، أو الماء المقدّس الذي ينبغي رشّه عندما تسنح الفرصة بأكبر مرشّة ممكنة. عندما شاهدتُ فيلم (كويز شو)[6] لم أقدر على البقاء ساكنة في مقعدي، فجوّ الثقافة العالية المتقدّمة على العمر في عائلة ڤان دورن مألوفٌ لديّ تماماً. على غرار أطفال ڤان دورن كان طفلا فاديمان يُسألان عن مصدر الاقتباسات باستمرار، مثلاً بينما تتدبّر أمّي أمرها بالقيادة عبر ازدحامٍ مروريّ خانق على الطريق العام باتّجاه أحد المطاعم في لوس أنجلوس، كان أبي سيغمغم: «ها نحن ذا في العالم الكئيب/ تجتاحنا نذر الصراع والقتال المربكة. المصدر؟!» وعلى الفور سنهتف أنا وكيم في الوقت ذاته: «*شاطئ دوڤر*»[7]!

حمّى التنافس كانت تبلغ ذروتها عصر أيام الأحد عندما نجتمع أمام التلفاز لمشاهدة حلقتنا الأسبوعيّة من جي. إي. كوليج باول. إن كنتم من جيل وميولٍ معيّنة فقد تتذكّرون أنّه برنامج مسابقاتٍ - شريف ولا تلاعب فيه - حيث يتنافس فريقان من كليّتين مختلفتين، كلّ منهما مؤلّفٌ من أربعة طلابٍ للحصول على منحة دراسيّة. أنا وعائلتي كنّا أيضاً فريقاً من أربعة يدعى - وهو ما أعترف به علناً لأوّل مرّة - جامعة فاديمان، وكنّا نؤمن إيماناً راسخاً أنّ بمقدوره هزيمة كلّ الجامعات الأخرى. في الواقع، خلال خمس أو ستّ سنوات من المنافسات، خسرنا فقط أمام كليّتي براندیز وكولورادو. أبي يملك إجابات كلّ أسئلة التاريخ والأدب، أمّي تعرف إجابات السياسة والرياضة، وأخي إجابات العلوم، أمّا أنا فنادراً ما عرفتُ شيئاً لا يعرفه عضوٌ آخر من جامعة فاديمان لكنّ منعكساتي أسرع من منعكسات والديّ، لذلك كنتُ أنجح أحياناً بأن أسبقهما بقرع ذراع كرسيّ (نسختنا المنزليّة من ضغط الجرس في كوليج باول). كان

6- Quiz show فيلم أميركي من إخراج روبرت ريدفورد 1994. م

7- Dover Beach قصيدة للشاعر الإنجليزي ماثيو أرنولد نشرت عام 1867. م

الفاديمانيّون يصرخون بالجواب حتّى قبل أن ينتهي مقدّم الحلقة روبرت إيرل من طرح السؤال «وينغ بيدلبوم هو أستاذ مدرسة سابقٌ عاثر الحظّ، الدكتور بيرسيڤال هو...»، **بووووم!** «وينسبرج أوهايو». «بعد تسميمه أطلقت عليه عدّة رصاصاتٍ...» **بووووم!** «راسبيوتن».

وهكذا أمضيت طفولتي في صراعٍ للتفوّق على عائلتي، حرزّني منه اعترافي بهزيمتي بأن أعرض على بقيّةً كامورا فاديمان اختبار المفردات الذي فشلتُ فيه فشلاً ذريعاً، حتّى قبل أن تقترب أيديهم من ذراع الكرسي.

عرفت والدتي كلمة واحدة: سيبوي. كيم، في انتصارٍ أخويٍّ حاسم، عرف تسعاً: mephitic, monophysite, diapason, sepoy subadar, alcaldeaspergill, agathodemon, *kakodemon*. أبي عرف اثنتي عشرة: كلّ الكلمات التي عرفها كيم (عدا المرشّة) إضافةً إلى *retromingent, paludal, camorra, opopanax*. **بووووم!** زوجي، رغم أنّه يعتبر جوهر جامعة فاديمان هوساً خطيراً، لكنّه استجاب بحبورٍ إلى استطلاعي وعرف *Diapason*. أظنّه كان سعيداً للغاية بالتفوّق عليّ!

متجاهلة نصيحة ناشري، استطلعتُ عيّنة عشوائيّة من أصدقائي: ناقد سينمائيّ، وكاتب مستقلّ، وثلاثة محرّرين، وكاتب مسرحيّ، وبروفيسور أدب إنجليزيّ، وبروفيسور كلاسيكيّات[8]، ومحامٍ، وطالب حقوق، ومؤدٍّ كوميديّ، ومدير العمليات في منظومة باصات مدينة نيويورك.

حاول بعضهم التملّص من المنافسة بالتعامل مع المسابقة كحزورة مفردات وتقديم أجوبةٍ مرتجلةٍ كيفما اتفق: *Paludal* معجنات ألمانيّة مصنوعة من الكلاب، السابودار: مبصقة تركيّة، *Grimoire*: المكان الذي يحفظ فيه ذو اللحية الزرقاء رداء حمّامه.

النتائج النهائيّة هي كالتالي: خمسة لم يحزروا أيّة كلمة، ثلاثة عرفوا

8- فرع الكلاسيكيات يختص بدراسة كلّ ما يتعلق بالعالم اللاتيني الروماني من أدب وتاريخ وحقوق وآثار... إلخ. م

كلمة واحدة، واحدٌ عرف كلمتين، ثلاثة عرفوا سبعاً، وشخصٌ واحدٌ عرف تسع كلمات.

لا أدّعي أنّ استطلاعي كان ذا مغزى إحصائيّ، لكنّ ما فاجأني أنّ المشتركين كانوا إمّا في القمة أو في الحضيض: لا يعرفون أيّة كلمةٍ أو على العكس تماماً، يعرفون العديد منها. ما الذي يميّز أتباع والي إذن؟!

دون شكّ والدي - بطل المسابقة - هو والي، ويشغل مرتبة خاصّة به وحده. رغم أنّني قد أتجرّأ على القول إنّه في التسعين من عمره -أي إنّه وكارل ڤان ڤيشتن ينتميان إلى الحقبة الثقافيّة ذاتها- ممّا يصبّ في مصلحته. صديقي المحامي الذي عرف سبع مفرداتٍ تنحصر كلّ قراءاته تقريباً بالأعمال المكتوبة قبل الحرب العالميّة الأولى، وهو في الحادية والأربعين من عمره، لكنّه عمليّاً في التسعين. بروفيسور الكلاسيكيّات (9 كلمات)، وأحد المحرّرين (7 كلمات) يعرفان اللاتينيّة والإغريقيّة. أخي يتفوّق بميزة استثنائيّة هي أنّه لا يملك تلفزيوناً. كلّ المتسابقين الحائزين على المراتب العليا اعتبروا المفردات الاثنتين والعشرين - خاصّة التي *يجهلونها*- جائزةً ثمينةً لا عقبةً صعبة. «عندما اكتشفتِها لا بدّ أنّك شعرتِ بمثل كورتيز الشجاع» هتف بروفيسور الأدب الإنجليزيّ (7 كلمات).

(«المصدر؟» خطر لي تلقائيّاً. «اللقاء الأوّل مع هومر عند تشابمان[9]»).

كلّ أتباع والي يتذكّرون بدقّةٍ أين صادفوا المفردات التي عرفوها للمرّة الأولى.

بروفيسور الأدب الإنجليزيّ قال: *Mephitic*. لا بدّ أنّها تعني شيئاً كريه الرائحة. قرأتها في «*ضياع الفردوس*»[10] عند وصف رائحة الجحيم.

أخي، وهو دليلٌ جبليٌّ وأستاذ تاريخٍ طبيعيّ يعيش في وايومنغ قال:

9- On first looking into Chabman's Homer سوناتا لجون كيتس يصف فيها دهشته عندما قرأ ترجمة جورج تشابمان لهومر أوّل مرّة. م

10- Paradise lost قصيدة ملحمية لجون ملتون نشرت عام 1667. م

Mephitic. اممم. أجل. الاسم العلميّ للظربان المخطّط هو *Mephitis mephitis* والذي يعني *المقرف المقرف*.

المحامي الذي قرأ كلمة *Mephitic* صدفة قبل أسبوع في «*سارتور ريسارتوس*» لتوماس كارليل، يتمتع بذاكرةٍ استثنائيّة. عندما طلبتُ منه أن يشرح *Monophysite* أجاب: «إنّها هرطقةٌ بالطبع وتعني الشخص الذي يؤمن بطبيعة واحدة لشخص المسيح. قرأتها أوّل مرّةٍ في «*انحطاط وسقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة*»، بطبعةٍ مختصرةٍ من إصداراتِ ديل لوريل، ذات غلاف أخضر عليه صورة خرائب رومانيّة. اشتريتها من مصروفي لقاء 75 سنتاً عندما كنتُ في المدرسة الابتدائيّة من متجر كتبٍ يقع على الزاوية بين تقاطع شارع ميل رود مع بنسولا بوليڤار في ڤالي ستريم، نيويورك، وقرأتها في طريق عودتي إلى المنزل. كان الفصل ربيعيّاً والأشجار في ميل رود مخضوضرة. لا رجل في العالم قادرٌ أن يصف وجه وفستان وعطر حبيبةٍ قديمة بهذه الدقّة وهذا الشغف، كما تذكّر جون ذلك اليوم البهيّ حين التقى مع المونوفيزيّة للمرّة الأولى!

سألتُ المشاركين في استطلاعي أيضاً إن كانوا يظنّون أنّنا نعرف كلماتٍ أقلّ أو أكثر ممّا لو كنّا في عام 1920. انقسموا إلى فريقين متساويين: «أراهن أنّنا نعرفُ عدداً مماثلاً من المفردات على أقلّ تقدير». قال الكوميديّ الذي لم يعرف معنى أيّة كلمةٍ في الاستبيان. «لغة الإنترنت وحدها تعوّض بسهولةٍ كلّ ما خسرناه من مفردات أدب القرن التاسع عشر» برأيي أنّها فكرةٌ Mephitic، مقرفة بالتأكيد! الكاتب المسرحيّ (عرف كلمة واحدة) أجابني بحزن: «نعرف عدداً أقلّ، كما أنّها أقلّ جمالاً... فقط انظري إلى المفردات التي على قائمتكِ! الكلماتُ التي خسرناها دلاليّةٌ موحية، أمّا الجديدة فهي حَرفيّة مجرّدة. لم أصادف أبداً كلمة مودِم في قصيدة». أوافقه رأيه! بالتأكيد لن أحزن على غياب كلمة Cupellation (عمليّة فصل الذهب أو الفضّة عن الرصاص في وعاء مسطّح خاصّ يدعى البوتقة)، لكنّني أتحسّر على حياتي التي

انقضت دون أن أعرف إلّا الآن أنّ Grimoire هو كتاب تعاويذ سحريّة، أو أنّ Adytum هو الجزء الداخليّ الأشدّ قداسة في المعبد. بالنسبة لي، قاموس والي وكتاب كارل ڤان ڤيشتن عن القطط هما كتابا تعاويذي وأشعر بقواهما السحريّة تمارس فعلها عليّ في هذه اللحظة.

تلك الكلمات الاثنتان والعشرون التي كانت مجهولة تماماً قبل شهرين تغلغلت اليوم عميقاً في قدس أقداس شخصيّتي. بعد عيد ميلاد ابنتي الخامس بفترة وجيزة، حلمتُ أنّه عوضاً من أن تلعب سوزانا (وهي مولعةٌ الآن *بوالي دودة الكلمات*) وصديقاتها لعبةَ ضع- الذيل- في مكانه- على- الحمار لعبنَ بمفرداتي التي اكتسبت أشكالاً مجسّمة لمّاعة. كلمتهنّ المفضلّة كانت المُرّ *Opopanax*. ربّتت الفتياتُ على ألعابهنّ الجديدة بحبور لأنّ الكلمات كانت جميلة وبرّاقة، لكنّها في الوقت نفسه خفيفة للغاية كالبالونات... إن لم ينتبهن، تطير بعيداً.

Calineries (n)	مداهنة أو تملّق
Diapason (n)	المجال الكامل لصوت أو لآلة موسيقيّة
Adapertile (adj)	قابل للفتح بسهولة
Retromingent (adj)	ما يتبوّل للخلف بسبب شكل الجسم مثل القطط
Perllan (n)	بستان ويلزيّ
Paludal (adj)	ذو علاقة بالمستنقعات أو بالملاريا
Apozemical (adj)	مستخلص بالتقطير
Ithyphallic (adj)	ذو قضيب منتصب خاصة في المنحوتات والتماثيل
Alcalde (n)	منصب محافظ البلدة في إسبانيا أو البرتغال
Agathodemon (n)	روح خيّرة
Kakodemon (n)	روح شرّيرة
Goetic (adj)	ذو علاقة بالسحر الأسود

اللّامنتمي

لطالما اعتقدتُ أنّه في مكتبة كلّ شخصٍ هناك رفٌّ لامنتمٍ. على هذا الرفّ تستقرّ مجموعاتٌ صغيرةٌ غامضةٌ من مجلّداتٍ تختلف موضوعاتها اختلافاً جذريّاً عمّا تحتويه بقيّة المكتبة، لو تفحّصناها بإمعانٍ، فإنّها ستكشف الكثير عن صاحبها.

رفُّ جورج أورويل اللّامنتمي احتوى رزماً من المجلّات النسائيّة تعود لحقبة 1860 كان يحبّ تصفّحها في حوض استحمامه. فيليب لاركن كان لديه رفٌّ كبيرٌ مكتظّ بالكتب الإباحيّة خاصّة التي تتناول صفع المؤخرات. أمّا نائب الأدميرال جايمس ستوكديل[1] فعندما علم أنّ فريدريك الأكبر[2] لم ينطلق قطّ في حملةٍ دون كتاب *الإنشيرِديون*[3]، أخذ معه إلى ڤيتنام الأعمال الكاملة للفيلسوف إبكتيتوس، والتي أعانته بفلسفتها الرواقيّة على تحمّل سنواته الثماني كأسير حربٍ.

رفّي أنا يحتوي أربعة وستّين كتاباً عن الاستكشافاتِ القطبيّة: سرديّات الحملات، ومقالات، ومجموعات من الصور الفوتوغرافيّة، وكتبٌ عن التاريخ الطبيعيّ، ودليل البحّارة «لا تلمس معدناً بارداً بيدٍ رطبةٍ دون قفّازات.

1- James Stockdale 1923-2005 نائب أدميرال في البحرية الأميركية كرّم بميدالية الشرف لمشاركته في حرب فييتنام حيث قضى قرابة 8 سنوات في الأسر. م

2- Frederick the Great هو فريدريك الثاني حكم إمبراطورية بروسيا من 1740- 1786. م

3- The Encheiridion يعرف أيضاً بدليل إبكتيتوس، وهو فيلسوف رواقي من أتباع زينون وصلتنا مؤلفاته عن طريق تلميذه آريان. م

إن فعلتَ دون انتباه، قم بالتبوّل على المعدن لتدفئته وأنقذ بضعة إنشاتٍ من جلدك. إن أمسكته بيديك الاثنتين، فمن الأفضل أن تستدعي صديقاً».

لقد كُتبتْ هذه الكتبُ بزخمٍ عاطفيٍّ كبير يثير الإحساس بأنّها ملطّخةٌ بشحم الفقمة، أو مشبعةٌ برذاذ بحر ويدِل[4]. اهتمامي بها يتيمٌ لا أتشاركه مع أحدٍ في حفلات الكوكتيل، وأحسّ أحياناً بأنّني قضيتُ شطراً كبيراً من حياتي في تعلّم لغةٍ منقرضةٍ لا يتحدّثها سواي.

وأنا أقرؤها في السرير أقول لزوجي: «هل تعلم أنّه في حملة سكوت الأولى إلى القارّة القطبيّة الجنوبيّة، كان إدوارد ويلسون يستيقظ في الساعة الواحدة وفي الساعة الخامسة فجراً كي يمضغ لحم الفقمة ثمّ يزقّمه لصوص بطريق إمبراطوريّ اصطاده على الحاجز الجليديّ العظيم[5]؟»، سيردّ جورج بغمغمة، فهو شخصيّاً عاشقٌ للغاباتِ المطريّة. حلمه أن يجلس تحت شجرةٍ مداريّة عملاقة، كتفاه ملتحمان بالنباتات المعرّشة المتعفّنة وبراعم أزهار البروميلياد، مع خمس مئة نوعٍ من اليرقات المتعدّدة الألوان تتساقط على رأسه.

أعتقد أنّ ما يعتبره مثالاً للمنظر الطبيعيّ فوضويٌّ ومبالغٌ به - *فائضٌ عن الحدّ!* - بينما يعتبر جورج المنظر الطبيعيّ المثاليّ *بالنسبة لي* - منظرٌ وحيد اللون، أبيض في أبيض، من الجبال والصدوع الجليديّة مع دبٍّ قطبيّ وحيدٍ في الخلفيّة - فقيراً ويبعث على القشعريرة. *غير كافٍ!*

حاولتُ أن أشرح له أنّ جوهر القطبين له إغراء جسد كاثرين هيبورن نفسه (أعلم أنّه يكنّ إعجاباً كبيراً له) والذي لخّصه سبنسر ترايسي[6] في «*بات ومايك*» بـ (القليل من اللحم، لكنّه *مدهش*).

4- Weddell Sea جزء من المحيط القطبي الجنوبي. م

5- الحافة الجليدية التي تمتد على مئات الكيلومترات متصلة باليابسة في القطب الجنوبيّ، وتبدأ بالذوبان على شكل كتل كبيرة تنفصل إلى البحر. م

6- Spencer Tracy 1900-1967 ممثل أميركي مشهور في حقبة هوليوود الذهبية، لعب بطولة فيلم Pat & Mike مع كاثرين هيبورن عام 1952. م

ولعي بالبساطة المتقشّفة لخطوط العرض القصوى بدأ مبكّراً جدّاً لدرجة أنّه تلزمني سنواتٌ على أريكة المحلّل النفسيّ للنبش عن جذوره. لا أتذكّر عمراً لم أفضّل فيه الشتاءَ على الصيف، أو *ملكةَ الثلج* على *سندريلا*، أو الأساطيرَ الاسكندناقية على الإغريقيّة. كنتُ في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة حين قرأتُ ذكريات سي. إس. لويس[7] عن لحظة الإشراق المحوريّة في طفولته حين قرأ صدفة شعراً للونغفيللو[8] مستوحى من الأساطير الاسكندناقيّة يبدأ بهذه الأسطر:

سمعتُ صوتاً يصرخ

«بولدر الحسناء

قد ماتت، قد ماتت».

«لم أكن أعلم شيئاً عن بولدر» كتب لويس، «لكن في تلك اللحظة أحسستُ بأنّني أُرفَعُ فوراً إلى السماوات الشماليّة الشاسعة، وانتابتني شهوةٌ عارمةٌ لشيءٍ لا يوصف (عدا عن كونه بارداً، وفسيحاً، وقاسياً، وشاحباً، وبعيداً)». عندما قرأتُ ذلك المقطع، أدركتُ ما الذي شعر به وارتجفتُ، كأن حرارة جسمي قد انخفضت تعاطفاً معه.

توقي الشديد لما وصفه لويس بالشماليّة (القطب الشماليّ) خلق عندي عندما كبرتُ رغبة مضادّةً بالجنوبيّة (القطب الجنوبيّ) وبما أنّه لم يكن بمقدوري زيارة أيٍّ من حدّي العالم هذين، عملتُ فترةً كمدرّبة تسلّق جبالٍ مفترضةً أنّ الارتفاعاتِ الشاهقة بديلٌ منطقيّ عن تطرّف خطوط العرض.

بعد عدّة سنواتٍ تمكّنتُ من إقناع محرّر طيّب القلب بإرسالي مرّتين إلى القطب الشماليّ: مرّةً لأكتبَ عن الدببة القطبيّة ومرّةً عن ثيران

7- C.S. Lewis 1898-1963 كاتب وباحث لاهوتي بريطاني، من مؤلّفاته: الأسد، الخزانة والساحرة. م

8- Henry Longfellow 1807-1882 شاعر أميركي كان أوّل من ترجم الكوميديا الإلهيّة لدانتي. م

المسك. في المرّتين خشيتُ أنّ الصورة الافتراضيّة التي طالما حلمتُ بها سيفسدها الواقع، لكن في المرّتين كان ما وجدته أفضل، وبمجرّد رجوعي إلى المنزل كنتُ أسارع إلى رفّي اللّامنتمي الذي يردّني مباشرةً إلى سماواتِ لويس الشماليّة الفسيحة.

وهكذا، عبر السنين، انقلب ولعي ببولدر الحسناء إلى ولعٍ بروس، وفرانكلين، ونيرز، وشاكلِتون، وأوتِس، وسكوت.

يجدر بي القول إنّ كلّ من ذكرتهم من المستكشفين كانوا فاشلين فشلاً ذريعاً، وليس صدفة أيضاً أنّهم جميعاً بريطانيّون. الأميريكيّون يقدّرون النجاح، بينما يقدّر الإنجليز الفشلَ البطوليّ. لو خُيّرتُ، على الأقلّ في قراءاتي، فأنا لا-أميركيّة لدرجة أن أفضّل الفروسيّة الحالمة دائماً على الكفاءة.

لطالما كان مفهوم انحطاطِ الإمبراطوريّة في العصر الڤكتوريّ باعثاً على حزنٍ عميق بالنسبة لي، ولا أحد ڤكتوريٌّ أكثر من أولئك الرجال الشجعان، والمتحمّسين، والمتفائلين، والمضحّين بأنفسهم، والوطنيّين، والشرفاء، والخلوقين، والخرقى للغاية الذين تركوا أسماءهم على امتداد الخرائط القطبيّة، ومع ذلك فشلوا في إيجاد طريقهم عبر الممرّ الشماليّ الغربيّ، فخسروا السباق إلى كلا القطبين. مَن، غيرُ إنجليزيّ هو الملازم ويليام إدوارد باري، سيقرّر حين وصوله غرينلاند الغربيّة أن يرفع رايةً عليها غصنُ زيتونٍ كعلامةٍ على السلام عند لقائه الإسكيمو الذين لم يروا غصنَ زيتونٍ في حياتهم، فضلاً عن أنّهم لا يعرفون ما هي *الشجرة* أصلاً؟! من غير إنجليزيّ هو السير جون فرانكلين الأسطوريّ سيموت من المجاعة والاسقربوط هو وكلّ طاقمه المؤلّف من 129 رجلاً في منطقةٍ من القطب الكنديّ كفلت طرائدها الحياة لشعوب الإسكيمو قروناً عديدة؟!

عندما اكتُشفتْ جثثُ بعض ضبّاط ورجال طاقم فرانكلين على بعد أميالٍ من سفنهم، تبيّن أنّهم تركوا أسلحتهم خلفهم، وحزموا أساسيّاتِ

تتألف من طقم أدوات المائدة الفضيّة الأصليّ، ولوح نرد، وحافظة سيجار، وفرشاة ملابس، وعلبةٍ من ملمّع الأزرار، ونسخةٍ من رواية *(كاهن ويكفيلد)*[9].

هؤلاء الرجال كانوا هواةً غير أكفّاء، لكن، قسماً، إنّهم نبلاء حقيقيّون!

المستكشفون الناجحون، أمثال روالد أمَندسِن، النرويجيّ البراغماتيّ الذي تزلّج 830 ميلاً إلى القطب الجنوبيّ، والذي ذبح وأكل كلاب زلّاجته وفق برنامج صارم، ثمّ تزلّج عائداً دون أدنى أثرٍ لعضّة الصقيع أو الاسقربوط أو البهر الثّلجيّ - أحد رفاقه الأربعة أصيب بألمٍ في أسنانه - لا يثيرون فضولي. «بالطبع لا»، سيعلّق جورج «أنتِ رومانسيّة. ما الرومانسيّ في شخصٍ يقرّر الذهاب إلى مكانٍ ما *ويصل* إليه؟».

لا أحدَ أكثر رومانسيّة في بانثيون الخيبات القطبيّة البريطانيّة من الرجل الذي هزَمَه أمندسن: الكابتن روبرت فالكون سكوت، والذي أكنّ له مشاعر إعجابٍ خاصّة. أحد أسباب امتلاكي دزّينةً من الكتب عنه هو أنّه ورفاقه كانوا من هواة القراءة. نتخيّل مستكشفي القطبين عادةً كرجالٍ وسخين يجاهدون لشقّ طريقهم عبر الثلج دون أن يتبادلوا كلمةً واحدة، ويقتاتون على مؤونةٍ ضئيلةٍ من حساء معجون الشحم واللحم. معظمهم كذلك في الواقع! إنّما قبل أن ينطلقوا في العديد من رحلاتهم الصعبة، كان عليهم قضاء الشتاء في قواعد تخييمٍ ستفاجئنا بدرجة تحضّرها. أحدها، كايب إيڤانز، الكوخ القطبيّ الجنوبيّ المريح حيث أمضى سكوت وأربعة وعشرون من رجاله شتاء عام 1911، كان الأرفع ثقافة على الإطلاق: ثلاث ليالٍ في الأسبوع بعد العشاء - المتضمّن في المناسبات الخاصّة حساء الفقمة وصدر البطريق المطهوّ على البخار- أقام سكوت جلساتِ ما أطلق عليها اسم الجامعة القطبيّة الجنوبيّة، وتراوحت مواضيع النقاش بين مستقبل الطيران، والفنّ الياباني، وعلم طفيليّات الأسماك.

9- رواية لأوليفر غولد سميث صدرت عام 1766 وكانت من أكثر الروايات قراءةً في القرن 18. م

أمّا في الليالي غير الجامعيّة فكان الرجال يستمعون إلى كاروسو يصدح في الغرامافون، أو يكتبون الشِّعر، أو يرسمون مناظر بالألوان المائيّة، أو يقرؤون كتباً من رفوفهم اللّامنتمية حملها بعضهم مسافة 14000 ميل.

سكوت جلب مختاراتٍ من الروايات الروسيّة والبولنديّة، الكابتن لورنس إدوارد غريس أوتس وهو خريج كليّة إيتون[10] سابق وصفه أحد البحارة بالقول: «جنتلمان، جنتلمان حقيقيّ، ودائماً جنتلمان» أحضر معه الأجزاء الخمسة كاملة لكتاب تشارلز جيمس «نابيير حروبُ شبه *الجزيرة*» وهو دراسة ملحميّة عن حملات نابليون في إيبيريا. إدوارد ويلسون، رئيس الفريق العلميّ والرجل الذي ربّى صوص البطريق في حملة سكوت السابقة إلى القطب الجنوبيّ، جلب أعمال تِنيسون[11]. بعد أن قرأ قصيدة «الذكرى» كتب في يوميّاته: «لقد أدركتُ أنّها عملٌ متكاملٌ يجمع الإيمان والأمل والدين، وجعلتني أشعرُ بأنّه لو حانت نهايتي هنا أو هناك... فهذا سيكون قدري».

وكأنّ كلماته تلك كانت نبوءة!

أيّ طالب مدرسةٍ في إنجلترا يستطيع أن يخبرنا أنّ سكوت، وأوتس، وويلسون، والملازم هنري باورز، وضابط البحريّة إدغار إيڤانز أعاقهم الطقس السيّئ، والمؤونة غير الكافية، والملابس غير المناسبة، والخيام الرديئة. يضاف إلى ذلك حبّهم للحيوانات، فأخّرهم إصرارهم المازوخيّ على جرّ زلاجاتهم بأنفسهم معظم الرحلة عوضاً عن الاعتماد على الكلاب. عند وصولهم إلى القطب الجنوبيّ في 17 كانون الثاني 1912، اكتشفوا أنّ أمندسن قد سبقهم وغرز العلم النرويجيّ قبلهم بأربعةٍ وثلاثين يوماً.

10- Eton college أنشأها الملك هنري السادس في إيتون، يوركشاير عام 1440 وهي الثامنة عشرة من حيث الترتيب كأقدم كليات بريطانيا، يرتادها أفراد الطبقة الأرستقراطية. م

11- Alfred Tennyson 1809-1892 حمل لقب شاعر البلاط خلال معظم حكم الملكة فكتوريا، وحظي بشعبية واسعة. م

في 17 شباط، بعد شهرٍ من مسيرة العودة، مات إيڤانز بحادث سقوط. في 17 آذار، أوتس، وقد أدرك أنّه يعوق تقدّم الفريق بسبب إصابة قدميه بعضّة الصقيع والغرغرينا، غمغم بأشجع وأشهر الكلمات في تاريخ الاستكشافات القطبيّة: «سأخرج قليلاً، وقد أتأخّر» ثمّ خطا خارجاً إلى العاصفة الثلجيّة ولم يره بعد ذلك أحد. كان عيد ميلاده الثاني والثلاثين. *بولدر الحسناء قد ماتت، قد ماتت.*

في 21 آذار، وقد بقيت معهم مؤونة يومين فقط، نصبَ سكوت، وويلسون، وباورز خيمتهم للاحتماء من عاصفةٍ هوجاء تقترب، ثلاثتهم منهكون من الجوع والاسقربوط. لقد قطعوا 740 ميلاً من القطب وما يزال أمامهم 140 ميلاً إلى القاعدة الأساسيّة، لكنّ مستودع وَن تون حيث خزّنوا كمية وافرةً من الطعام والوقود كان يبعد أحد عشر ميلاً فقط.

بعد سبعة أشهر، عثر فريقُ بحثٍ انطلق من كايب إيڤانز على الخيمة القماشيّة الخضراء الصغيرة وبداخلها استلقت ثلاث جثثٍ متجمّدةٍ في أكياس النوم المصنوعة من جلد الرنّة. بجوار جسد سكوت كانت هناك حزمة من الرسائل كتبها إلى زوجته وإلى زوجات وأمّهات رفاقه، ويوميّاتُه التي كتبها مرتدياً قفّازه لكنّها مقروءةٌ إلى الصفحة الأخيرة رغم تشوّش الخطّ. «نحن ضعيفون» دوّنَ، «الكتابة صعبة. من ناحيتي، أنا لا أندم على هذه الرحلة التي أثبتتْ أنّ الإنجليز يستطيعون تحمّل المشاقّ، ويساعد بعضهم بعضاً، ويستقبلون الموت بشجاعةٍ عظيمةٍ كما في الماضي».

يوميّات سكوت الأخيرة حزينة بشكلٍ لا يوصف، لكن لأسباب لا أستطيع شرحها تماماً أحزن أكثر كلّما قرأتُ سجلّاً لما وجده فريق البحث على زلّاجته: خمسة وثلاثون باوناً من أحفوريّاتِ العصرِ الباليزيّ[12]

12- Paleozoic era حقبة امتدت من 542 إلى 251 مليون سنة الماضية. خلالها انتشرت النباتات واستعمرت الفقاريات الأولى اليابسة. م

المتأخّر تمثّل أوراق وسيقان نباتاتٍ من جنس *الغلوسوبتيرس*[13]، جرّها الرجال مسافة 400 ميلٍ من نهر بيردمور الجليديّ.

كان سكوت شديد الحرص على عدم أخذ حمولةٍ زائدةٍ لدرجة أنّه حسب وزن مؤونة فريقه بأجزاء الأونصة، لكنّه لم يرمِ الصخور. ولو فعل، لربّما استطاع ورجاله قطع الأحد عشرَ ميلاً المتبقّية.

إن كان عليّ أن أحدّد الجزءَ الأغلى على قلبي من رفّي اللّامنتمي، أعتقد أنّه سيكون الصفحات التي تصف تلك *العيّنات الجيولوجيّة*.

حوليّات الاستكشافات القطبيّة تحتوي العديد من لحظات الانتصار، ولحظاتٍ أكثر من الهزل، لكنّها أيضاً مليئة بالموت. الدرس الذي علّمتني إيّاه تلك الكتب هو أنّك إن قرّرتَ أن تصبح شهيداً فاختر دافعك بحرص. عندما أفكّر في الأسباب المعتادة التي يضحي الناس بحياتهم لأجلها عموماً - الوطن، والدين، والعرق - فإنّ حقيبةً تزن خمسةً وثلاثين باوناً من الصخور والعالَمِ الضائع الذي تمثّله ليست خياراً سيئاً نموت لأجله على الإطلاق.

13- Glossopteris الجنس الأشيع والمعروف أكثر من رتبة البذريّات. م

لا تسخر من السونيتة

قرأتُ مؤخّراً أنّ ويليام كنستلر[1]، محامي الدفاع الراديكاليّ، قد كتب السونيتات لأكثر من خمسين عاماً. على ما يبدو أنّ وحياً إلهيّاً تنزّل عليه بعد اعتقال أو.جي. سيمبسون[2] ألهمه قصيدةً عنوانها «عندما صمتَ المهلّلون» تتألّف من أربعة عشر بيتاً من التفاعيل الثنائيّة على المقياس الخماسيّ، متضمّنة تلميحاتٍ إلى كأس هايزمان وشركة هيرتز لتأجير السيّارات، ختمها بتفعيلةٍ لا يمكن التشكيك بصحّتها عروضيّاً: «تعلّم الدرس الأقسى/ الشهرة لا تمنع سقطة».

لا يبدو أنّ كنستلر يعير أهميّة لغياب موهبته الشعريّة، فبعد إعادة محاكمة أو. جي صرّح: «أنا متأكّد من شيءٍ واحد: هذه ليست آخر سونيتة أكتبها حول الموضوع».

شعرتُ بنوعٍ من التواطؤ الحميم بين زميلين، فأنا أيضاً كتبتُ سونيتات رديئة. عندما كنتُ أرتّب خزانة ملفّاتي منذ عدّة أسابيع عثرتُ على المثال التالي بعنوان: «مقابلة مع جندي»:

آهٍ، طبعاً! سأهلّل كالباقين

عندما نتجاوز هذه المحنة ونعود كلّنا

1- William Kunstler 1919-1995 محام أميركي وناشط في مجال الحقوق المدنية وصفته النيويورك تايمز بأنه المحامي الأكثر إثارةً للجدل في البلاد وربّما الأشهر. م

2- O.J.Simpson لاعب كرة قدم أميركي حوكم عام 1994 بتهمة قتل زوجته وصديقها. ربح كأس هايزمان عام 1968. م

أحياناً أظنّ هذا الأمر بمثابة اختبارٍ
للأعصاب. ليلة أخرى بلا نوم، وستتداعى
شيءٌ مضحك! ونحن صغارٌ كلّ ما أردناه هو القتال
لكن لاحقاً، عندما تستلم بطاقة السحب للخدمة، -إنّه- حسناً
إنّه مختلفٌ. ليس مبهراً. والآن، في الليل
تصرخ بالعالم: اخرس، أو اذهب إلى الجحيم
لا بأس أن يموت البطل- وأنا أكره أن أزحف
بعيداً لأموت. أنت مجنون إن ظننتَ
أنّك ذاهبٌ إلى الجحيم... هذا الكاثوليكيّ- كان يصلّي وما شابه
تفجّر- أعتقد أنّهم وجدوا إصبعاً، رغم ذلك
لكن يا للمسيح! سقط قربي- أنا بخيرٍ
رغم ذلك، لم يحصل شيءٌ سيّئ على الإطلاق يومها.

تعود سونيتة «مقابلة مع جندي» بتاريخها إلى 21 أيّار 1967، وهي وظيفة في اللغة الإنجليزيّة كتبتها في الثالثة عشرة من عمري عندما كنتُ طالبةً في الصفّ التاسع في مدرسة مالبورو للبنات في لوس أنجلس، ومدرّستي كانت الآنسة فارار. آنذاك، كنتُ أعرف عن الجنود في ڤيتنام بمقدار ما أعرف عن الجنس أو السياسة - وهما الثيمتان الشعريّتان الأخريان المفضّلتان عندي- لكنّ ذلك لم يشكّل عائقاً قطّ! اعتقدتُ أنّ سونيتتي بوحشيّتها وعمقها الفكريّ كانت من أفضل ما كُتبَ حتّى ذلك الوقت ممثّلةً تقاطعاً واضحاً بين سيغفريد ساسون[3] وجي. د. سالنجر، وتستحقّ درجاتٍ إضافيّة لقدرتي على حشر كلّ تلك العدميّة في أربعة عشر سطراً فقط.

3- Siegfried Sassoon 1886-1967 جندي إنجليزي كرّم بميدالية الشجاعة على الجبهة الغربية ويعتبر من أهم شعراء الحرب العالمية الأولى. م

ما حصل هو أنّني نسيتُ نسخة «مقابلة مع جندي» المصفرّة على الطاولة جانب السرير، ولمحها زوجي. كلٌّ منّا أنا وجورج لديه أسراره، لكن خلال عشر سنواتٍ معاً لم أطلعه على أيّ من محاولاتي الشعريّة. ربّما لأنّه في العشرينيات من عمره كان شاعراً حقيقيّاً ينشر أعماله في مجلّات مرموقةٍ مثل *بلاو شيرز* و*ذا ساذرن بوتري ريڤيو*.

- امممم. قال منتقياً كلماته بعناية. لا بأس بالعَروض.

أحياناً أعتقد أنّ شاهد قبري سيحمل النقش التالي: كانت تتقن العروض. يا حسرتي! لخّص جورج أهمّ سمات شخصيّتي بثلاث كلمات.

تحت البناء الشكليّ المتين لسونيتتي - لم يكن عملاً سيّئاً في الحقيقة جمع الجحيم، والمسيح، واللعنة معاً- تختبئ روحٌ مهووسة بالكمال تعتني بأدقّ التفاصيل إلى حدّ التزمّت. السماح لتفعيلةٍ شاذةٍ أن تندسّ بين التفعيلات النظاميّة يكافئ تماماً بالنسبة لها الحضورَ إلى درس الآنسة فارار بلطخةٍ على زيّها المدرسيّ. لكم أن تتخيّلوا إذن كم كانت صفعةً مؤلمةً عندما علّقتْ مدرّستي السونيتاتِ المميّزة على لوح الإعلانات ولم تكن قصيدتي بينها. أكثر واحدةٍ أعجبَتْها كانت تدور عن الأكروبوليس، وما زلتُ بعد ثمانيةٍ وعشرين عاماً أتذكّر أنّ كاتبتها شبّهت البانثيون بـ«التاج المتهدّم». لم يخطر لي أبداً أنّ هذا المجاز وحده يساوي المئات من سونيتتي، فكلّ ما لاحظته في غمرة كبريائي الجريحة هو أنّ منافستي *لم تلتزم* بالعَروض.

فقط عندما أصبحتُ في السادسة عشرة، وقرأتُ سونيتة شكسبير 116 (لا تقنعوني أنّ الارتباط الحقيقيّ بين روحين متحابتين/ يرضخ أمام العقبات. الحبّ ليس حبّاً...)، وسونيتة الصقر لهوبكنز (الجمال الوحشيّ والإقدام، آه، الهواء، الكبرياء، الريش، هنا/ تتداعى!) أدركتُ أنّ الشاعرين لم يلتزما بالتقطيع العروضي المفترض للسونيتة ليس لأنّهما غير قادرَين على ذلك، بل لأنّهما لا يريدان عن قصد.

من مجموع عشرين أو ثلاثين سونيتة كتبتها، بقيتْ- سيخيب أمل

محرّري الأنطولوجيّات الشعريّة!- أربعٌ فقط. من حيث المبنى، كلّ قصائدي تتبعُ النمط الشكسبيريّ (تتألفّ السونيتة من ثلاث رباعيّاتٍ وثنائيّة) لا النمطَ البتراركي (ثُمانيّةٌ وسداسيّة) لأنّ الأوّل أسهلُ باعتماده على سبع قوافٍ وليس مجرّد أربع أو خمس (عقليّتي الساعية للنجاح دون كللٍ تتوق للتحدّي، لكنّني لم أكن على استعداد لتحمّل مشقّةٍ إضافيّة غير ضروريّةٍ قد لا يميّزها القرّاء غير المتخصّصين في جمهوري الافتراضيّ). إذن فالأعمال الكاملة للشاعرة فاديمان كلّها... غير واعدة! سونيتة أخرى كتبتها في عمر الخامسة عشرة، وأنا ألقي بنظرتي المتشائمةٍ على جزءٍ مهملٍ من بولڤارد هوليوود ريثما أنتظر دوري للدخول إلى فيلم، ختمتها بالبيتين: «يموتُ الكثير من الناس في السينما لكن / رأيتُ موتاً أكثر منتظرةً في الخارج». تقطيعها العروضيّ لا بأس به أيضاً.

طيلة ذلك الوقت، مثل *البرجوازيّ النبيل* في مسرحيّة موليير والذي هنّأ نفسه لأنّه تحدث نثراً طيلة حياته، كنتُ أتوهّم أنّني حقّاً أكتب القصائد. بدت لي سونيتاتي كأنّها شعرٌ، حتّى وقعها في أذني كان كالشعر، لكن كان عليّ أن أعترف بعدما دخلتُ إلى الجامعة في سنّ السابعة عشرة وتفتّحت قدراتي النقديّة، أنّها... ليست شعراً على الإطلاق. ما ظننته عبقريّةً لغويةً هو في الواقع ليس إلّا القدرة المبرمجة جينيّاً على تخطّي الصعوبات اللفظيّة والتي أتاحت لكلّ فردٍ من أفراد عائلتي التفوّقَ في الكلمات المتقاطعة والسكرابل واستنباط الكلمات[4]. مع هذا الاستنتاج الرهيب توقّفتُ نهائيّاً عن كتابة الشعر، عدا بعض الأبيات الهزليّة التي ألقيها في حفلات زفاف الأصدقاء. كم أحسد السيّد كنستلر على حالة إنكار الواقع التي سمحت له بكتابة السونيتات على مدى نصف قرن!

يبقى السؤال: خلال اشتغالي بما سمّيته شعراً، لماذا اخترتُ السونيتة فقط دون سواها؟!

بتأمّل مجريات الأمور، أعتقد أنّني وجدتُ في السونيتة طريقة لإثبات

4- Anagram تغيير أماكن الحروف في الكلمة لاستنباط كلمات جديدة مختلفة. م

وجودي الروحيّ والجسديّ. كنتُ صغيرة البنية وانفعاليّة، لا تلائمني القصائد الملحميّة ولا الشعر الحرّ. في العمل كما في الحياة، كان مقدّراً لي أن أكرّس نفسي لا للخطط العظيمة، بل للتفاصيل الثمينة الدقيقة. السونيتة، باختصارها المكثّف وتركيبها الدقيق (لا يمكن أن تتألّف من اثني عشر أو ستّة عشر بيتاً) تقوّي الإيمان بأنّ ضآلة الحجم لا تترافق بالضرورة مع ضيق الأفق. السونيتة التي تبدو للوهلة الأولى قصيرةً جدّاً تتسع للحبّ والحرب والموت و أو. جي. سمبسون، وقادرة على احتواء العالم بأسره لو بذلتَ جهدك.

لذلك أشعر بانجذاب خاصٍّ إلى سونيتتين للشاعر ويليام ووردزورث يدور موضوعهما عن السونيتة بحدّ ذاتها. الأولى عنوانها (الراهبات لا يضقن ذرعاً بغرفهنّ الصغيرة) تتحدّث عن القيود التي - عكس ما نتوقّع منها - تطرح علينا نوعاً من الخلاص. فكما أنّ الراهبة لا تشعر بنفسها محشورةً في غرفة الدير الضيّقة لأنّها واسعةٌ بما يكفي لقبول الله، كذلك السونيتة بنطاقها المتواضع قد تطلق العنان لخيال الشاعر: «حقيقةً، السجن الذي نزجّ / أنفسنا فيه ليس سجناً، لذلك بالنسبة لي/ في مختلف مزاجاتي كنتُ سعيداً أن أبقى/ ضمن أبيات السونيتة القليلة».

أمّا في القصيدة الثانية وعنوانها: (لا تسخر من السونيتة) فيستحضر ووردزورث موكباً مهيباً من الشعراء: شكسبير، وبترارك، وتاسو، ولويس دي كامو، ودانتي، وسبنسر... عذّبتهم خسارة الحبّ أو المنافي أو الاكتئاب لكنّهم وجدوا عزاءهم في بنية السونيتة، ويختتم بالشاعر جون ملتون الذي كتب أعظم أعماله بعد أن أصيب بالعمى في بداية الأربعينيات من عمره: «عندما أحاط الضباب/ درب ملتون، في يده/ أصبحت السونيتة ترومبيتاً يندّه العالم».

الثيمة المتعلّقة بقدرة السونيتة على تقديم العزاء تحمل معنًى خاصّاً بالنسبة لي بسبب ما جرى مع والدي منذ سنتين عندما كان في الثامنة والثمانين. خلال أسبوع لا غيرٍ، ولأسباب مجهولة، تدهور بصره من

القدرة على قراءة *الموسوعة البريطانيّة* إلى بالكاد قراءة أكبر حرف E على لوحة فحص البصر. وقتها أخذته من الشاطئ الغربيّ لفلوريدا حيث يقطن هو وأمّي إلى معهد باسكوم بالمر للعيون في ميامي. هناك أخبرونا أنّه مصابٌ بتنخّرٍ حادّ في شبكيّة العين ناجمٍ غالباً عن فيروس الحُماق الذي بقي هاجعاً لأكثر من ثمانين عاماً، وأنّه على الأرجح لن يستعيد جزءاً هامّاً من قدرته البصريّة.

أمضيت ليلة بطولها في سريرٍ نقّالٍ إلى جانبه في المشفى. تحدّثنا خلالها عن متع حياته وعن خيباتها. في لحظةٍ ما بعد منتصف الليل قال: «لا أريد أن أبدو مأساويّاً، لكن إن لم أعد قادراً على القراءة والكتابة فقد قُضيَ عليّ». والدي الذي لم يتقاعد بعد كان ما يزال معتاداً على العمل ستّين ساعة في الأسبوع كمحرّرٍ وناقد.

– حسناً. جون ملتون كتب «*ضياع الفردوس*» بعد أن أصيب بالعمى. قلتُ محاولة التعلّق بقشّة.

– بالفعل! أجاب. كما كتبَ تلك السونيتة المشهورة.

– حول فقدانه البصر. قلت. (لقد قرأتها عندما كنت في الثالثة عشرة في السنة ذاتها التي كتبتُ فيها أولى سونيتاتي).

– عندما أفكّر كيف قضيتُ أيّامي... ثمّ ماذا يقول بعد ذلك؟! قال أبي. أليس هناك حرف جرّ؟

في العتمة، استطعنا نحن الاثنان فيما بيننا أن نتذكّر ستّة أبياتٍ ونصفاً من أصل أربعة عشر. «حالما تصلين إلى نيويورك» قال. «أوّل ما أريدك أن تفعليه هو أن تبحثي عن هذه السونيتة وتقرئيها لي عبر الهاتف».

تلك الليلة كان مستحيلاً أن نحزر أنّ أبي سيتعلّم خلال سنة كيف يستخدم الكتب الصوتيّة، وكيف يحاضرُ دون الاعتماد على ملاحظاتٍ مكتوبة، وأن يكتشف قدراتٍ ذهنيّةٍ كامنة لم يكن يدري بوجودها. باختصار، سيكتشف أنّ غرفة الدير الضيّقة التي أُجبِر على البقاء فيها

- رغم أنّها رهيبة - لكنّها أوسع بكثير ممّا تخيّل... كلّ تلك الأمور ما زالت طيّ الغيب، أمّا الآن، في ميامي، فستقدّم سونيتة ملتون أولى قبسات الفضول العقليّ الدائم الذي سيهب أبي خلاصه.

عندما عدتُ إلى المنزل، اتصلتُ به في المشفى وقرأت له السونيتة:

عندما أفكّر كيف انتهى ضوئي
حتّى قبل أن ينتصف عمري، العالم مظلمٌ وشاسع
وموهبتي التي يعني تغييبها الموتَ
محشورةٌ معي بلا فائدة، مع أنّ روحي تشتهي
أن أخدم بها خالقي، أن أقدّم له
ما صنعتُ في الحقيقة منها. أخشى أن يردّني
«كيف يطلب منّا الربّ أن نكدح لأجله عندما يحرمنا البصر؟»
أسأل بحماقة، لكنّ الصبر يردعني
يردّ على غمغمتي
الله لا يحتاج عمل الإنسان ولا موهبته، أولئك
الذين يسلّمون أقدارهم له، هم من يخدمونه أفضل
الله الملك، آلافٌ من عباده يخدمونه
رائحين غادين لخدمته، في البرّ والبحر بلا انقطاع
ويخدمون أيضاً أولئك الذين يقفون وينتظرون.

- آه بالطبع! قال أبي المتشائم غيرُ المتديّن. كيف لي أن أنسى؟!

لا تؤذِ كتاباً

عندما كنتُ في الحادية عشرة وأخي في الثالثة عشرة، اصطحبنا والدانا إلى أوروبا. في فندق «أوتيل إنجلترا» في كوبنهاغن، ترك كيم على المنضدة بجانب السرير كتاباً مقلوباً على صفحاته المفتوحة كما يفعل كلّ ليلةٍ تقريباً منذ تعلّم القراءة. عصرَ اليوم التالي، عاد ليجد الكتاب مغلقاً، قصاصةٌ من الورق تشير إلى الصفحة المطلوبة، وفوقه ملاحظةٌ موقّعةٌ من خادمة الغرفة جاء فيها:

سيّدي، يجب ألّا تفعل هذا أبداً لأيّ كتاب.

صعق أخي! كيف يمكن أن يحصل ذلك؟ أن يوصم قارئٌ مخلصٌ للكتب مثله- يُهرّب كتاباً ومصباحاً يدويّاً تحت الأغطية بعد أن تُطفَأ الأضواء في مدرسته الداخليّة، وهي جريمةٌ عقوبتها العصا- *بأنه شخصٌ لا يحبّ الكتب*؟! شاركتُه ذهوله. لم أتخيّل عائلةً تقدّس الكتب أكثر من آل فاديمان. مع ذلك، في عيني خادمة الغرف الدانماركيّة، كنّا كلّنا باستثناء أمّي مذنبين بانتهاك حرمة الكتب.

خلال الثلاثين عاماً التالية، أدركتُ أنّه كما توجد أكثر من طريقةٍ للحبّ بين البشر، هناك أيضاً أكثر من طريقةٍ نحبّ فيها الكتب. خادمة الغرف كانت تؤمن بالحبّ العذريّ. الكيان الماديّ للكتاب مقدّسٌ بالنسبة لها لا يمكن فصله مطلقاً عن محتواه، ودورها كعاشقةٍ هو الإعجاب الأفلاطونيّ؛ دورٌ نبيلٌ لكنّه محاولةٌ محكومةٌ بالفشل

للحفاظ على حالة العفّة المطلقة التي خرج بها الكتاب من المتجر مدى الدهر. عائلة فاديمان تؤمن بالحبّ الحسيّ. بالنسبة لنا *كلمات* الكتاب وحدها المقدّسة، أمّا الورق، والتجليد، والغلاف الكرتونيّ، والصمغ، والخيطان، والحبر التي تحتوي الكلمات فهي مجرّد وعاء ناقلٍ لا غير. لذلك لا يُعتبر انتهاكاً أن يُعامَل الكتاب كما تقتضي الرغبة والمصلحة. الاستعمال الفظّ ليس قلّة احترامٍ، بل علاقة حميمة.

هيلاير بيلوك[1] وهو عاشقٌ عذريّ كتب مرّةً:

يا طفلي! لا ترمِ الكتاب هكذا
تجنّب تلك المتعة الخبيثة
بقصّ كل الصور
حافظ عليه كأنّه كنزك الأغلى

ماذا سيقول بيلوك عن أبي، عندما ينتزع الفصول التي أنهاها ويرميها في القمامة بهدف تقليل وزن الكتب التي يقرؤها على متن الطائرة؟! ماذا سيقول عن زوجي الذي يقرأ في الساونا، حيث تتلف الأوراق بفعل الحرارة وتتساقط كبتلات أزهارٍ في عاصفة؟! ماذا سيقول (وهذه محاولةٌ جريئة منّي لتحسين صورة عائلتي باستحضار أمثلةٍ مشابهة) عن توماس جيفرسون الذي قسّم نسخة أصليّة لا تُقدّر بثمنٍ من الإصدار الأوّل عام 1572 لأعمال بلوتارك باللغة الإغريقيّة كي يشبك أوراقها مع الترجمة الإنجليزيّة؟ أو ناشري السابق بيرون دوبِل، عندما كان يقوم بأبحاثٍ ليكتب عن الرحلة الأوروبيّة الكبرى[2] فسهر مرّةً طيلة الليل

1- Hilaire Belloc 1870-1953 كان شاعراً وبحّاراً وجنديّاً وناشطاً سياسيّاً. م

2- The Grand Tour: اعتباراً من القرن 17 كان أبناء الطبقة الأرستقراطية يطوفون أوروبا سنتين أو ثلاثاً بهدف التعرف على حضارتها عن كثب وتقوية معارفهم، والتمتع بجوّ من الحريّة بعيداً عن أسرهم. م

يقرأ مذكّرات بوزويل[3] بأجزائها الستّة، ملخّصاً ما فعل بـ «لقد رضعتُ المجلّداتِ كنمسٍ عملاق، لم ألقِ بالاً إلى حالتها بهدف الحصول على ما أريد من معلومات. كتبتُ على الصفحات، ووضعتُ خطوطاً تحت الأسطر، وجزّأت الكتب، وأوقعتها، ومزّقتها إلى قطع، وفعلتُ أشياء لا يمكنني أن أخبركِ بها علناً».

بيرون يحبّ الكتب، حقّاً يحبّها. وكذلك زوجي، الذي لا يتخلّى عن عادته في وضع الكتاب مقلوباً على صفحاته المفتوحة ممّا يتسبّب بكسر كعبه. مرّةً نبّهه شريكه في الغرفة: «جورج، إن كسرتَ كعبَ كتابٍ مجدّداً بهذه الطريقة، فتأكّد أنّك تكسر *عمودي الفقريّ*».

كيم بدوره يحبّ الكتب. على المنضدة جانب سريره حاليّاً، رغم تجربته السابقة الذكر في كوبنهاغن، هناك ثلاثة مجلّداتٍ مفتوحة على أقصاها ومقلوبة. «إنّها جاهزةٌ بلمحة كي ألتقطها. سأقرّب لك الوضع إلى مثالٍ إلكترونيّ: إغلاق الكتاب بعد وضع علامةٍ فيه يشبه كبس زرّ (توقّف). وعندما تفتحين الكتاب وتضعينه مقلوباً فكأنّك ضغطتِ (إيقافٌ مؤقّت)».

أعترفُ أنا بتحديد الصفحة التي وصلتُ إليها بعدّة طرق. أحياناً أضع الكتاب مقلوباً على صفحاته المفتوحة، وأحياناً أرتكبُ خطيئة أبشع هي ثني زوايا الصفحة (آخذ دور المنتهكِة والوسواسيّة في آنٍ واحد: أثني الزاوية العليا لأحدّد الصفحة، والسفليّة لأحدّد المقطع الذي أنوي نسخه في كتاب تذكاراتي).

العشّاق العذريون جميعهم يضغطون توقّف. عمتي كارول - التي ستتبرّأ على الأرجح من صلتي بها بعد أن تكتشف كيف أعامل كتبي - تضع نسخاً من لوحات أودَبون[4] أفقيّاً لتحدّد الفقرة التي كانت تقرؤها.

3- James Boswell 1740-1795 محامٍ وكاتب سيرة ذاتية اسكتلنديّ، يشتهر بكتابة سيرة حياة صديقه صامويل جونسون، وكتاب يوميّات الرحلة الكبرى. م

4- John James Audubon 1785-1851 رسام وعالم طبيعة أميركي اشتهر بتوثيق كلّ سلالات الطيور في أميركا ورسوماته التوضيحيّة الدقيقة لها. م

إن كان وجه اللوحة الملوّن لأعلى فهذا يعني أنّها تقرأ الصفحة اليسرى، والعكس بالعكس. أحد زملائي في الجامعة محام يستعمل بطاقاته الشخصيّة لهذا الغرض مزدرياً علامات الكتب الفضيّة من ماركة تيفاني الخاصّة بزوجته، لأنّها أثخن ببضعة ميكروناتٍ من المطلوب وقد تخلّف أثراً واضحاً على الصفحة. زميلٌ آخر، مؤرّخ للفن، يفضّل بطاقاتِ مترو باريس أو «إيصالات بطاقات الائتمان، تلك المطبوعة - لكن فقط في كتب النقد الفنيّ التي أرغب بتدنيس غرورها بشيءٍ فظٍّ وماديّ. يستحيل أن أقوم بذلك مع كتب الأدب أو الشعر... *إنّها مقدّسة*».

العشاق العذريّون يزيلون علامات الكتب ما إن تنتهي مهمّتها. العشّاق الحسيّون يتركون تذكاراتٍ رومانسيّة، عادة ثلاثيّة الأبعاد ووسخة. «*طيور يوسمايت والمنحدر الشرقيّ*» مجلّدٌ يعود إلى صديقةٍ تكتب في مجال العلوم يحمل بين طيّاته ريشةَ بومةٍ، وذروة ذيل سنجاب، دليلاً على جريمةٍ حصلت بالقرب من معبر تيوغا[5]. ناقدةُ كتب من مغارفي أخذت معها في رحلة تخييم إلى يوكاتان كتاب «*قصص وأشعار إدغار ألن بو*»، وكلّما حطّت حشرةٌ مثيرةٌ للاهتمام عليه أغلقتْ درفتيه. تحوّل كتابها إلى معرض حشراتٍ ضخمٍ لدرجة أنّها خشيت مصادرته في الجمارك (لكنّه بقي بحوزتها).

الأثر الأطول ديمومة الذي قد يتركه شخصٌ في كتاب - وبالتالي هو الأفظع بالنسبة للعاشق العذريّ- هو كلماته! حتّى أنا لا أخربش على موسوعة (عدا ربّما بقلم رصاص رقم 3 قابلٍ للمحو لاحقاً)، لكنّني معتادةٌ على إضافة الحواشي إلى الروايات والمجموعات الشعريّة - أحوّل المونولوجات إلى محاورات- منذ تعلّمت القراءة. بيرون دوبل أخبرني أنّه كثيراً ما كتب على كتبه المفضّلة مثل «*مقالات مونتانيه*»[6]في

5- Tioga pass معبر في جبال السييرا نيفادا بالقرب من كاليفورنيا. م

6- Essays of Montaigne مجموعة من 3 كتب تضم 117 مقالاً كتبها ميشيل دو مونتانيه في فرنسا عام 1580. م

فترات مختلفةٍ من حياته، وبألوان مختلفةٍ من الحبر لدرجة أنّها تحوّلت إلى ما يشبه مخطوطاً يضمّ عدّة طبقاتٍ من النقوش بعضها فوق بعض. أفضّل أن أقرأ نسخة بيرون من مونتانيه على أن أقرأ نسخةً بكراً مبتاعةً توّاً من متجر كتب، تماماً مثلما أفضّل أن أقرأ نسخة جون آدامز[7] من «*الثورة الفرنسيّة*» والذي جادل مؤلّفةَ الكتاب الميّتة ماري وولستون كرافت في حواشيها بحدّة («يا للسماء!»، «نظريّة بربريّة!» ، «هل اعتقدت هذه السيّدة أنّ ثلاثة أشهر فترة كافية لصياغة دستورٍ حرٍّ لخمسة وعشرين مليون فرنسيّ؟») لدرجة أنّ خطّ يده بعد مئتي عام ما يزال يبدو غاضباً.

تخيّلوا ماذا يخسر العشّاق العذريّون بإيمانهم أنّ الكتبَ خُلِقتْ *للقراءة* لا غير! ماذا يستعملون لحشو الفراغات، ولتثبيت درفة الباب، ولتسوية تجاعيد بساط، أو كأثقالٍ فوق ما يلصقونه بالغراء؟! عندما كان صديقي مؤرّخ الفن مراهقاً، كان يستعمل كتابه الأثير: «*الأساطير الإغريقيّة لداوليرز*»[8] كطبلٍ يتدرّب بوساطته على إيقاعات ليد زبلين. عندما اكتشفت أستاذة الفلسفة في كلّيتي أنّ طفلتها الرضيعة مولعة ببورتريه ديڤيد هيوم المطبوعة على الغلاف الورقيّ لنسخةٍ من إصدار بنغوين، قامت بتجليد الكتاب بالبلاستيك كي تستطيع طفلتها حكّ أسنانها على المفكّر العظيم. مينيلِك الثاني، إمبراطور إثيوبيا في مطلع القرن، كان يحبّ أن يمضغ أوراق الإنجيل. لسوء حظّه فقد مات بعد أكل سِفر الملوك كاملاً. لا أعتبر مصيره حجّة كي نبقي أيدينا وأسناننا بعيدةً عن الكتب. العبرة هنا بوضوح أنّه كان ينبغي عليه تجليد أوراقه بالبلاستيك.

«بالنسبة إلى عاشق حقيقيّ للقراءة، لا أجمل من الأوراق الملطّخة

7- John Adams ثاني رئيس للولايات المتحدة الأميركيّة امتدّت ولايته من 1797-1801. م

8- D'Aulaires هما الزوجان إنغريد وإدغار بادن داوليرز، ألّفا الكتاب الذي صدر عام 1962 معاً، ورسما صوره عندما كانا في رحلة إلى اليونان. م

والنسخ المهترئة... لكتب المكتبة الجوّالة[9] كتاريخ توم جونز[10] مثلًا أو كاهن ويكفيلد». كتب تشارلز لامب[11]: (إنّها تشي بآلاف الأصابع التي قلّبت أوراقها بمتعة!... من يحتاج نسخاً أقلّ اتساخاً؟! وهل هناك حالٌ أفضل نشتهي أن نراها فيها؟!» بالطبع لا. أعرف مهندس مناظر طبيعيّة يستمتع برائحة التراب المندسّ بين صفحات مراجعه حول علوم النبات، ويعتبرها بمثابة الطمي المتراكم من سني عمله. كذلك تعتبر صديقتي التي تكتب في مجال العلوم أنّ نسختها من « *ثدّيات العالم*» أصبحت أثمنَ بعد أن تلطّختْ بزرقِ برتراند راسل، وهو فرخ حمام يتيمٌ جثم عليها عندما كان يتعلّم الطيران. بدوري لديّ حمّالة بلاستيكيّة شفّافة لكتب الطبخ لكنّني لا أستعملها مطلقاً. تخيّلوا السعادة التي سألاقيها بعد ثلاثين عاماً من الآن عندما أفتح كتاب «*متعة الطبخ*» على الصفحة 581 وألمس *لطخة حقيقيّة من صفار البيضة* الذي هرسته ابنتي بعمر اثنين وعشرين شهراً في وجبتها الأولى من المافن بالتوت؟! ببساطة، المزاج العذريّ والأطفال الصغار لا ينسجمان معاً. مع ذلك آمل أنّني لست واهمةً حين أتخيّل خادمة الغرف الدانماركيّة - إن كانت أمّاً الآن- تقدّر القيمة العاطفيّة لنسخةٍ مهترئةٍ من «*الأرنب بات*»[12] - وهو كتاب يدعو الطفل لأن يتصرّف مثل نمس صديقي بيرون دوبل- قُرِئتْ لدرجة أنّ خاتم ماما انكسر ووجنة بابا أصبحت ناعمة كحجر بلارني[13] من تكرار اللمس؟

9- Circulating Library أنشئت كشركات خاصّة في القرن 19 بهدف إعارة الكتب لقاء اشتراك رمزيّ للعامة غير القادرين على شرائها. م

10- The history of Tom Jones, A foundling رواية صدرت عام 1749 لمؤلّفها هنري ويندلنغ. م

11- Charles Lamb 1755-1834 شاعر وكاتب مقالات إنكليزيّ. م

12- Pat the Bunny كتاب تفاعلي للأطفال ماقبل المدرسة فيه حلقة مكان خاتم الأم يمكن للطفل أن يدخل إصبعه فيها، وأن يلمس وجنة الأب المغطاة بطبقة خشنة. كتبته دوروثي كانهارت عام 1940. م

13- Blarney Stone حجر في جدار قلعة بلارني في اسكوتلندا يعتقد أن تقبيله يجلب للشخص مواهب لغوية. م

المشكلة في مقاربة العاشق الحسيّ هي أنّنا نحبّ كتبنا إلى حدّ تمزيقها. أخي مثلاً يحتفظ بنسخته من «*الدليل الذهبيّ للطيور*» في كيس بلاستيكيّ يُقفل بسحّاب. «إنّها تتألّف من عشرات الملازم المنفصلة» قال كيم. «ومن المستحيل قراءتها. عندما أمسكها يسقط الفصل المتعلّق بالبلشون الأبيض، لكن إن استبدلتها، فالحاشية التي كتبتها عندما التقيتُ بالبجعة البيضاء أوّل مرّة ستضيع. إضافة إلى أنّني لا أريد الاعتراف بأنّ أسماء معظم الأجناس قد تغيّرت... لو اشتريتُ الإصدار الجديد سأخون صديقي نقّار الخشب ذا البطن الأصفر الذي انقسم جنسه اليوم إلى ثلاثة أجناس منفصلة».

والعكس من ذلك، كُتبُ صديقي كلارك - ثمانية آلاف كتاب معظمها أعمالٌ فلسفيّة - لن تواجه مطلقاً مصير «*الدليل الذهبيّ إلى الطيور*». في الواقع، مجرّد *سماعه* عن كتاب كيم سيسبّب له انهياراً عصبيّاً. كلارك، وهو محلّل استثمارات، لا يسمح لزوجته بفتح الستائر حتّى تغيب الشمس وإلّا بهتت الأغلفة، ويشتري نسختين على الأقلّ من الكتب التي تعجبه... واحدٌ منها فقط يعاني العبء العسير المتمثّل بتقليب أوراقه. مرّةً ارتكبت حماته عندما زارتهم خطيئة أن تتناول كتاباً عن الرفّ فلاحقها كظلّها في أرجاء المنزل كي يطمئنّ أنّها لن تسيء معاملته، كأن تضعه مقلوباً على صفحاته المفتوحة على طاولة.

أعرف هذه الوقائع عن عائلة كلارك لأنّ جورج زارهم في الأسبوع الماضي، وبينما كان يتجاذب أطراف الحديث مع زوجة كلارك، دوّن ملاحظاته على الصفحة الفارغة الأخيرة في كتاب هيرمان ووك «*لا توقفِ الكرنفال*» الذي كان يحمله في حقيبته بالصدفة، ثمّ مزّقها وأعطاها لي.

النساء الحقيقيّات

منذ ستّ سنواتٍ في الأسبوع الذي ولدتْ فيه ابنتي البكر، أرسلت لي أمّي كتاباً يعود لجدّة جدّتي. التوقيت محض مصادفة، إذ كان والداي على وشك الانتقال من كاليفورنيا إلى فلوريدا، وكانا يتخلّصان من الأغراض التي لن يسعها البيت الجديد الصغير. بما أنّ الشمعدانات الفضيّة، وسكاكين السمك ذات المقابض اللؤلؤيّة، وصحن المخلّل المصنوع من الزجاج المحفور كانت من نصيبي، لذا رمت أمّي الكتاب الذي لم تقرأه أبداً مع تلك الأغراض لأنّه أيضاً مزخرفٌ وموروثٌ من أسلافي.

عنوان الكتاب هو: «*مرآة المرأة الحقيقيّة: توجيهاتٌ للنساء في العالم*». على غلافه العنبريّ نقوشٌ تزينيّةٌ نافرةٌ لأوراق وأزهار، وحوافّ أوراقه مذهّبة. كان بوسعي تلمّس انطباع الحروف الغائر بمجرّد تمرير إصبعي على صفحة العنوان، كما كان أسفل كعبه مهترئاً، دليلاً أنّه كثيراً ما سُحبَ عن رفّ عالٍ بإصبعٍ معقوفة.

داخل الغلاف الأماميّ هناك بطاقة تعريفيّة من أكاديميّة سانت ماري في مدينة سولت ليك تتضمّن كتابة مجهريّة من خمسة أسطر بالأسلوب السبنسريّ[1] – الأجزاء العلويّة للحروف كانت ناعمةً جدّاً كشَعر طفل– تفيد أنّ الكتاب جائزةٌ منحت للآنسة مود إيرل في 21 حزيران 1886

1- Spenserian script style خط الكتابة باليد الرسميّ المعتمد في المراسلات في الولايات المتحدة الأميركيّة من 1850 حتى 1925. م

لتفوّقها في: الحساب، والجبر، والهندسة، وعلم المثلثات، والقواعد، والخطابة، والفلسفة الحديثة، والمنطق، وعلم النبات، والأدب، والتاريخ العام، وفنّ الخطّ، والفلك، والفصاحة، والمصاحبة الموسيقيّة، والكتابة الأدبيّة، والخياطة، والتطريز، والغيتار، وأرشفة الكتب.

جدّتي الكبرى مود تُعتبر خارجة عن المألوف في العائلة، ففي خليطنا الطائفيّ - أتحدّر من يهود، مشيَخيّين، وأسقفيّين، ومورمون، وأتباع كنيسة العلوم المسيحيّة - كانت الوحيدة الكاثوليكيّة. وافق والداها البروتستانتيّان على ارتيادها مدرسة الدير شرط ألّا تحاول راهبات الصليب المقدّس استمالتها لتغيير دينها، لكنهنّ أدركن على ما يبدو أن شخصيّتها المتميّزة أثمن بكثير من التزامهنّ بوعدهنّ. لذلك، بحلول موعد تخرّجها في المدرسة كانت مود قد أصبحت كاثوليكيّة مخلصة. الجائزة التي اخترنها لها هي الكتاب الوحيد بحوزتي الذي ورثته عن أحد أجدادي سواء المباشرين أو البعيدين. عندما أرسلته أمّي لي، كلّ ما كنتُ أعرفه عن مود هو أنّ شَعرها الكستنائيّ الكثيف كان ينسدل إلى ركبتيها ويسبّب لها صداعاً بسبب وزنه، فاضطرت في النهاية إلى قصّه وباعته لقاء خمسةٍ وعشرين دولاراً - السعر ذاته الذي حصلت عليه جو لقاء شَعرها في «*نساءٍ صغيرات*»- وأنّها كانت راقية للغاية، وتستطيع الخياطة بغرزٍ دقيقةٍ تكاد لا تُرى.

قرأتُ «*مرآة المرأة الحقيقيّة*» للمرّة الأولى وأنا أرضع ابنتي في كرسيّ هزّاز، في خضمّ الاضطراب المتوزّع بين النشوة والرعب الذي تغرق فيه كلّ الأمّهات الجديدات نتيجة الحرمان من النوم وإعادة تعريف هوياتهنّ المفاجئ.

أثار الكتاب حفيظتي! إنّه ينتمي إلى ذلك الجنس العتيق من كتيّبات النصائح الموجّهة للنساء - يشترك برقم الإيداع في مكتبة الكونغرس مع كتب سابقةٍ من قبيل: «*الحصول على كلّ شيء: الاستراتيجيّة في حرب الجنس*»، و«*المعين للمستعجلين، المتشاجرين، والمُجبَرين*» - كلّها عند نشرها عام 1877 كانت ولا شكّ مكتوبة بأقلام الرجال.

المؤلّف هو الموقّر برنارد أوريلي، قسّ من نيويورك كان ملحقاً كهنوتيّاً بالفرقة الإيرلنديّة في جيش بوتوماك خلال الحرب الأهليّة. في اثنين وعشرين فصلاً أشبه بالمواعظ «المملكة الحقيقيّة للمرأة: المنزل»، «درّة تاج الزوجة: الإخلاص»، «مهمّة الأمّ تجاه الصبيان والبنات»). تمكّن الأب أوريلي من حشر كلّ ما اعتقد أنّ على المرأة معرفته.

زبدة الكتاب هي: «وجود المرأة برمّته، كي تكون مصدر سعادة لنفسها وللآخرين، يتلخّص في التضحية بالذات». إن حافظت على حدودها، فسيتحوّل بيتها إلى «البقعة الأجمل في الأرض والأعزّ والأكثر إشراقاً». أمّا إن تجاوزتها فسيؤول مصيرها إلى مصير مشابه للأمّ الأنانيّة في رحلةٍ إلى أوروبا حيث «يتحطّم قاربها بين جبال الجليد قرب شاطئ نيوفاوندلاند»، أو كربّة البيت الكسول التي تواجه مصيراً أبشع هو أن يخيب أمل زوجها و«يهاجر إلى كاليفورنيا».

-أيها الأب أوريلي. كنتُ أقرّعه في ذهني وأنا أهدهد ابنتي. لم تتزوّج قطّ! لم يكن لديك أبناء قطّ! كيف تتجرّأ على إسداء النصح لجدّة جدتي حول كيفية إدارة حياتها؟! كيف تتجرّأ على إسداء النصيحة لي أنا؟!

كان الأب أوريلي اللعين واثقاً من نفسه كلّ الثقة أو هكذا بدا لي، ففي ذلك الوقت كنتُ تائهة. سخرت من نفاقه الفكتوريّ لكنّني خشيتُ في سرّي أنّه محقٌّ بخصوص الأمومة- أنّ الـ (أنا الأعلى) سيسحق بلا رحمةٍ الـ (هو) في تكويني النفسيّ- كنتُ أعمل للمرّة الأولى في حياتي ككاتبةٍ من المنزل، بينما أصبح جورج المعيل الأساسيّ لأسرتنا. «خُلِق الرجال ليعيلوا أسَرَهم: وُلِدوا هكذا ومن ثمّ يُصقلون أكثر بالتعليم في كلّ مجالٍ من مجالات كدحهم» قرأت. «معركتهم هي معركة الحياة برّاً وبحراً، أمّا المنزل بهدوئه وقدسيّته واحتجابه عن الأعين، فهو مملكة المرأة: لقد خُلِقتْ لتحيا في الظلّ». ماذا إن علقتُ في الظلّ ولم أستطع الزحف خارجه أبداً؟!

لقّبَنا الأبُ أوريلي بـ«الجنس الأضعف»، لكنّي أعتقد أنّه يراوغ

فحسب. أحبّت بطلاتُه أطفالهنّ حبّاً جارفاً، قدّمن العزاء للمجذومين، تبنّين الأيتام المشوّهين، ووزعنّ الخبز على العائلات الفقيرة «خلال أعتى عواصف الشتاء». بالمقارنة معهنّ، كان الرجال كسالى بائسين يستنزلون الكوارث باستمرارٍ، إمّا بسبب عيوبهم (الإدمان على الكحول، والزنا، والاستثمارات الحمقاء)، أو حظّهم التعِس (أيدٍ مشوّهة، وأقدامٌ مبتورة، وروماتيزمٌ مُقْعِد). وقفت الزوجاتُ بعزمٍ إلى جانب أزواجهنّ وساعدنهم على التخلّص من عاداتهم المقيتة، وعوّضن عجزهم بأن عملن هنّ بكدحٍ أكثر. طرفتي المفضلة هي التي رواها أوريلي عن زوجٍ متديّن للغاية:

عند عودته إلى المنزل في موعد العشاء ذات يوم، ثار غضبه عندما وجد أنّ الطعام لم يجهز بعد، وراح يقلب أثاث غرفة السفرة ويكسّره. الزوجة – وهي امرأة تقيّة – اندفعت لتهدئة زوجها، وبينما كانت تحثّ الخدم على الاستعجال بتحضيراتهم، لفتت نظر زوجها بلطفٍ إلى أنّ مظاهر التعبير عن غضبه غير لائقة ورجته أن يقرأ كتاباً ريثما تذهب بنفسها لتساعد الطبّاخ. لكنّ الزوج رمى الكتاب بعيداً وأخذ يذرع الغرفة بغضبٍ جيئة وذهاباً، بينما أسرعت السيّدة إلى مطبخها».

بعد قليل، وقد اقتدى الرجل بهدوء زوجته (أو لأنّ عشاءه وُضِع أمامه أخيراً) التقط الكتاب وأخذ يقرأ. بضربة حظّ مدهشة، كان الكتاب هو «*حياة القدّيسين*». أصلح الرجل موقفه فوراً، و«أضاف اسماً جديداً إلى القائمة الطويلة للقدّيسين المسيحيّين الذين يدينون – بتوفيق من العناية الإلهيّة – بعظمتهم وبطولاتهم إلى زوجةٍ ورعةٍ لا يُقاوَم تأثيرها».

أنت لا تخدعني أيّها الأب أوريلي، فكّرتُ. *إنّها الحيلة القديمة ذاتها: نحن أفضل من الرجال، لذلك لا نحتاج أن نكون على قدم المساواة* معهم. لكن لن يضيرني ادّعاء بعض المجد. ذات مرّةٍ وأنا أقرأ مقطعاً عن الزوجة المثاليّة، رفعت بصري عن الكتاب وسألت جورج: هل تعتبرني وردة الجمال والطهارة النقيّة التي لا مثيل لها والتي تزيّن صدرك؟ ردّ

جورج بغمغمةٍ حياديّةٍ لحفظ السلام، لكنّها لم تحمل نبرة التأكيد المطلق.

منذ خمسة أشهر، بعد ولادة طفلي الثاني، أعدت قراءة «*مرآة المرأة الحقيقيّة*». يبدو أنّ هذا الكتاب يتوافق مع إرضاع طفل. هذه المرّة كانت ثقتي بنفسي أفضل – فقد تبيّن لي أنّ الأمومة مصدر سعادةٍ ولم تصادر لا عقلي ولا هويّتي – لذلك ربّما شعرتُ بالأب أوريلي غير واثق من نفسه، ولم يعد تقديسه للبيت يتراءى لي غروراً، بل قلقاً. لا بدّ أنّه أحسّ بالتغيّرات التي تعصف بعالمه في عام 1877، واعتبر «واحة المنزل» المتراسَ الأخير ضدّ عدم التديّن، والنزعة الثوريّة، والجريمة، والإدمان على الكحول، والبغاء، والفساد السياسيّ، والعمل في المصانع، وقلّة احترام الأجيال الأكبر، وتحرّر المرأة. «أغلقي بابك وأقفليه بالمزلاج في كلّ الأوقات»، حذّر، «إن علمتِ أنّ الشرّ يترصّدك في الشوارع». *لا بأس أيها الأب أوريلي*. قلتُ له. *الكثير من الناس اليوم يبادلونك الشعور نفسه بالضبط*.

خلال القراءة الثانية أيضاً لم تبدُ الفضائل النسوية الموصوفة فظيعة للغاية (بل لو طبّقها الرجال كذلك بشكلٍ إجباريّ، لأصبح العالمُ ألطفَ وأفضل). في إحدى الليالي أعددتُ قائمةً مختصرةً من فضائل أوريلي وطلبتُ من جورج أن يقيّمني وفقها على مقياس من 1 إلى 10. وها هي النتائج:

التحفّظ 7

الانضباط 5

الحماسة الدينيّة 0

القدرة على التهدئة وإشاعة البهجة 6

المصداقيّة 10

الاقتصاد والتدبير 3

تجنّب الأدب والتماثيل والنقوش واللوحات البذيئة ... 2

اللطف 10

الحبور 6

حفظ النظام في المنزل 5

الابتعاد عن أزياء الموضة 10

ضبط النفس 9

التميّز بأشغال الإبرة 2

لن تؤهّلني هذه النتائج لربح كتابٍ من راهبات الصليب المقدّس، لكن أعترف أنّني شعرتُ ببعض الزهو كوني لم أفشل تماماً.

بعد القراءة الثانية رحتُ أتحرّى من أمّي وخالتي عن المرأة التي ربحت الكتاب. علمتُ أنّ زوج مود، جوزيف شارْب، شابّ ثريّ درس الكلاسيكيّات في هارڤارد، كان المشرف العامّ على منجم الفحم في ساني سايد، أوتا. وهي وظيفة وضعته في أعلى درجات السلّم الاجتماعيّ، كما كانت زوجته الجميلة سيّدة مجتمع مرموقة إلى أن ترك جوزيف عمله بدافعٍ من الحفاظ على مبادئه. تتذكّر أمّي أنّ انفجاراً حصل في المنجم ومنعه المالكون من فتح الأبواب لإجلاء العمّال المحاصرين خشية أن يؤدي الأكسجين إلى انتشار النار أكثر. خالتي تتذكّر إضراباً عن العمل، طرد المالكون بعده عائلات العمّال في منتصف الشتاء من بيوت الشركة فاضطروا إلى العيش في حفرٍ حفروها في الثلج.

بغضّ النظر عن السبب، انتقل جوزيف ومود دون أن يرافقهما خدمٌ إلى مزرعة ألبان، حيث كان على المتفوّقة في علم المثلثات والفصاحة أن تدعك الغسيل على لوح، وتقتل الفئران بمجرفة فحم، وأن تنهض قبل شروق الشمس لتجهّز الخبز لعمّال المزرعة الكثيرين وهي ترتدي ثياباً داخليّة وسخة.

من ثمّ، احترق منزل المزرعة. خسرا كلّ ما يملكانه عدا بضعة أشياء من

بينها الكتاب الجائزة الذي أعطته مود لابنتها. لم يكن بحوزتهما ما يكفي لإعادة بناء المنزل فجلبا كوخَ عمّال فحمٍ من أربع غرفٍ على عربةٍ تجرّها الخيول، غيرَ مدهون ولا معزول. لا لوحاتٍ على الجدران، لا بساطَ على الأرض، لا تماثيلَ تزيّن رفّ الموقد، لا موقد أصلاً. ونامت مود على سرير معدنيّ عاديّ وضِعتْ قوائمه في أوعية مليئةٍ بالتربنتين لإبعاد البقّ.

في فصلٍ فرعيّ عنوانه: «كيف ساندت زوجة مخلصة زوجها النبيل خلال ضائقةٍ ماديّة»، يروي الأب أوريلي قصّة رجلٍ ثريّ عاكسته الأقدار فاقترحت «زوجته الشابّة الفخور» أن يبيعا بعض الأثاث قائلة: «سترى أنّه لن يصعب عليّ فراق كنوزنا ما دمتُ أملك منزلاً صغيراً لك ولأبنائنا الأحبّاء» وهكذا انتقلت العائلة والخدم بحبورٍ إلى منزلٍ أكثر تواضعاً. «السجّادات عاديّة هذا صحيح، والأثاث من النوع الرخيص الشائع، لكنّ الكراسي والأرائك ومساند الأقدام كلّها غُطّيتْ بقماشٍ قطنيّ مطبّعٍ في غاية الجمال، لدرجة أنّ أحداً من الزوّار لم يفكّر بتفحّص ما تحته... ولم يشعر الأطفال بأيّ اختلافٍ في محيطهم، فابتسامة أمّهم وضّاءة اليوم أكثر من أيّ وقتٍ مضى».

لا بدّ أن مود قرأت هذا المقطع. هل رغبت يا ترى أن تكسّر مجرفة الفحم على رأس المؤلّف لاعتقاده أنّ تدنّي مستوى المعيشة لا يعني أكثر من أن تطلب من خدمك نفش وسائد ذات وجوه من القطن وليس الساتان؟ (كنتُ لأفعل. أنا لا أستحقّ تسع درجات على بند ضبط النفس)، أم لعلّها وجدت العزاء؟!

أيها الأب أوريلي، فكّرتُ وأنا جالسة وطفلي على إحدى ركبتيّ، والمجلّد البنيّ المهترئ على الركبة الأخرى. *أنا وأنت لا نتشاطر وجهة النظر ذاتها، لكن شكراً لك لأنك جعلتني أتعرّف على جدّتي الكبرى.* وأخبرته أنّه يوماً ما سأسأل ابنتي عن انطباعاتها حول «*مرآة المرأة الحقيقيّة*». سيكون أمامها الكثير ممّا تخوضه، عندما ترث كتاب جدّةِ جدّتها الكبرى في الأسبوع الذي تضع فيه مولودها الأوّل.

ماذا عن الإهداء؟

في الماضي، عندما لم نكن أنا وجورج حبيبين بعدُ، وإنّما سائران في هذا الاتّجاه عموماً، تبادلنا هدايا الكريسماس للمرّة الأولى... كانت كتباً بالطبع. أهداني جورج «*سيرة حياة دبٍّ بنيٍّ*» للكاتب إرنست تومبسون سيتون لعلمه كم أحبّ الدببة. على الصفحة الثالثة اختبأت كلماتٌ متواضعة: *إلى صديقة جديدة حقيقيّة*. لا عالم توراة، ولا خبير شيفرات في الحروب، ولا ناقد تفكيكيّ فحص ذات مرّةٍ نصّاً بقدر ما تفحّصتُ وأعدت تفحّص تلك الكلمات الأربع، آملةً أنّني لو حزرتُ التوكيد الصحيح «إلى *صديقة* جديدة حقيقيّة»، «إلى صديقة *جديدة* حقيقيّة»، «إلى صديقة جديدة *حقيقيّة*» فإنّ الإهداء سيتكشّف عن فحواه الكامنة كإعلان حبّ.

جورج يحبّ الأسماك، لذلك أهديته «*السيّد فلود العجوز*»، مجموعة قصصيّة صغيرة عن سوق السمك في فولتون، وقّعها المؤلّف جوزيف ميتشل بخطّ يده عام 1948. هل اكتفيتُ بذلك؟! بالطبع لا. كتبتُ: «*إلى جورج مع حبّي. آن*». ثمّ نسختُ بشكلٍ خطأ اقتباساً من ريد سميث[1]، وختاماً، - انطلاقاً من أنّك إن لم تعرف ماذا تقول فقل كلّ ما لديك - خربشتُ خمسة عشر سطراً من تأمّلاتي الشخصيّة حول ماهيّة الحميميّة. كلّ هذا اللغو المتراكم، ناهيك عن ذكر قوّة مشاعري، فاق ما كتبه جورج

1- Walter Wellesley (Red) Smith 1905-1982. صحفي رياضي أميركي، وهو أحد اثنين فقط في تاريخ جائزة البوليتزر ربحاها عن أفضل تعليق رياضي عام 1976. م

بنسبة عشرين إلى واحد. إنّها لمعجزةٌ أنّ الكتاب، ومتلقّيه، والصداقة الجديدة الحقيقيّة لم تُسحق جميعها تحت وطأة ذلك الإهداء.

لسوء الحظّ، بما أنّ جورج أصبح زوجي، وبقي على حبّه لكلٍّ من السمك وجوزيف ميتشل، فكلماتي باقية للأبد. عكس البطاقة التي ترافق لنقل، سترةً، والتي ستفترق عنها سريعاً، الكتاب وإهداؤه متلازمان مدى الحياة. إنها نعمةٌ أو نقمة، بكلمات شيماس ستيوارت صاحب متجر أنتيكات كتبٍ في تشيينغ كامبدن، غلوسيسترشاير: «تخيّلي كم ستفرحين بامتلاك نسخةٍ من كتاب «*الفصول*» لتومسون تحمل إهداءً أصليّاً: *إلى صديقي العزيز جون كيتس مع شكري وإعجابي، من پ. ب. شيللي. فلورنس 1820*. تخيّلي بالمقابل خيبة أملك بامتلاك نسخةٍ من الإصدار الأوّل لـ «*ضياع الفردوس*» لجون ملتون، خربش أحدهم على صفحة العنوان فيها بقلم حبر: *إلى آيدا من جيس، مع الكثير من الحبّ وغزل البنات، في ذكرى الإجازة السعيدة في بلاك بول 1968*» .

إهدائي، نموذجٌ من مدرسة غزل البنات، لم يضِفْ قيمة إلى *السيّد فلود العجوز* بالدرجة نفسها كـ: *إلى الآنسة إليزابيث باريت مع احترامي، إدغار آلن بو*، على نسخةٍ من «*الغراب وقصائد أخرى*»، ولا مثل: *إلى هانز كريستيان أندرسن/ من الصديق والمعجب تشارلز ديكنز/ لندن تمّوز 1847* على نسخةٍ من «*مذكّرات بيكويك*».

على سلّم الأهميّة بالنسبة للمهووسين بالكتب، ذلك التماسّ المقدّس الأثريّ مع المؤلّف يطغى على كلّ العوامل الأخرى: الغلاف، والندرة، والإصدار، وحالة الكتاب. وهو ما وضّحه الناقد وعاشق الكتب هولبروك جاكسون مرّة بقوله: «مهما كان الكتاب سخيفاً، وبالياً، وملطّخاً، ومستعملاً، وباهتاً، وزوايا صفحاته مثنيّة» ينقلب حاله جذريّاً إن حمل إهداءً ذا أصول تاريخيّةٍ مميّزة بما يكفي. من الذي لن ترتجف يداه وهو يحمل نسخة مهترئة من «*كورين*» لمدام دو ستيل، وفيها خطّ

بايرون على صفحة الإهداء[2] رسالة إعجابٍ من 266 كلمة إلى المركيزة غويتشولي ختمها بـ: *مشاعري تجاهك أعظم من الحبّ، ولا أستطيع أن أكفّ عن حبّك. فكّري بي أحياناً عندما تباعدنا المحيطاتُ وجبال الألب- لكن لا، لن تفرّقنا عن بعض أبداً ما لم ترغبي أنت بذلك.* (حسناً، لم أكن سأمانع قراءة ما يشبه ذلك الإهداء على «*سيرة حياة دبّ بنّي*»).

حتّى في خضمّ اضطرام عاطفته، لم ينسَ بايرون اتّباع إتيكيت الإهداء الصحيح بالكتابة على صفحة الإهداء لا صفحة العنوان، والتي تُخصّص تقليديّاً لمؤلّف الكتاب. تعلّمتُ هذا مؤخراً بعد أن شوّهتُ كتباً بالعشراتِ لمؤلفين آخرين، مع أنّه كان يجدر بي استنتاج الطريقة الصحيحة منذ سنواتٍ بمجرّد قراءة كلّ تلك الإهداءات التي كتبها المؤلّفون شرعاً على صفحة العنوان في رفّ كتب الأقارب والأصدقاء المكتظّ في مكتبتنا.

والدي كتب لي إهداءً على «*قصص الوحش المشهورة*» - وهي أنطولوجيا قدّم لها بقلمه - عندما كنتُ مراهقة كئيبة في الرابعة عشرة: *إلى آن، من الوحش العجوز بابا*. مارك هيلبرن - الذي كان يهوى ترك رسائل صوتيّة على المجيب الآليّ لأصدقائه بلهجاتٍ زائفةٍ (لكنّها مُقنِعة للغاية)- كتب إهداءاتٍ للعديد من كتبه بلغاتٍ من اختراعه. على «*يمامة من الشرق*» نجد:

Skanaarela tan floss atcha atcha qumble ta. Da bubo barta flay? Staarcroft.

أمضيتُ سنواتٍ محاولة عبثاً أن أفهم ماذا يعني هذا.

نمط آخر من النسخة المهداة - وهي نسخةٌ موقّعةٌ أهداها الكاتب من تلقاء نفسه لشخص ما - هو، النسخة الموقّعة بناءً على طلب مشتريها (أتخيّل أنّ الكاتب وقّعها في بعض الأحيان مع مسدّس مصوّبٍ إلى

2- Flyleaf هي هنا الصفحة الفارغة في بداية الكتاب بعد الصفحة الداخلية المطبوع عليها العنوان. ترتيبها عادة هو الثالثة. م

رأسه). قبل ابتكار حفلات توقيع الكتب التي ترعاها المكتبات، كان معظم القرّاء يرسلون نسخهم بالبريد إلى المؤلّف لتوقيعها آملين أن تُرَدّ إليهم. ييتس سأل توماس هاردي مرّةً حول كيفيّة تعامله مع هذه الطلبات، عندها أخذه هاردي إلى الطابق العلويّ وأراه غرفة كبيرة تتكدّس فيها آلاف الكتب من الأرض إلى السقف. «ييتس» هتف هاردي. «إنّها الكتب التي أُرسلتْ إليّ لتوقيعها».

وجدتُ الشهر الماضي في متجر كتب مستعملةٍ، نسخة من الإصدار الأوّل لرواية «*تحوّلات أسرة فورسايت*» كانت قد أتمّت دورةً ناجحة. على صفحة العنوان، وبخطّ صغيرٍ رسميّ كُتب بقلم حبر عتيق الطراز: *إلى س. إف. ساك مع المودّة. من جون غالزورثي. 6 أكتوبر 1930*. بدا لي أنّ غالزورثي لم يعرف س. إف. ساك شخصياً على الإطلاق ولم يدع أنه يعرفه. بالمقابل، ماذا عليّ أن أستنتج من الإهداء التالي: *إلى أوين - حبّي + قبلاتي - بروك شيلدز، قبلاتي*، الذي قرأته على صفحة العنوان في كتاب «*الوحدكَ*»[3] لمحته في متجرٍ آخر؟

متأكّدة أنّ شيلدز لم ترغب بتقبيل أوين أكثر ممّا رغب غالزورثي بتقبيل س. إف. ساك - التوقيع باسمها الكامل غلطة فاضحة - لكنّ ذلك لم يشكّل عائقاً! كلماتها المشبوبة بالعاطفة مكتوبةٌ بقلم حبرٍ لبّاد أسود وتشغل نصف صفحة تقريباً. (تأكّدتُ بعد دراسةٍ معمّقةٍ في قسم أوتوغرافات المشاهير في متجر ستراند للكتب أنّ قلم اللبّاد الأسود حقّق تزييفاً شبه مُقنِع. باربارا كارتلاند[4] توقّع بقلم زهريّ، إيڤانا ترامب بالبنفسجيّ، فرانسين دوبليسيس غراي[5] بالأخضر).

صديقي مارك أودونِل، الذي أعتبره مُبتكِر إهداءاتٍ لا يضاهى- لا

3- On your Own كتاب موجّه للمراهقين ألّفته عارضة الأزياء بروك شيلدز عام 1985. م

4- Barbara Cartland 1901-2000 روائيّة إنجليزية غزيرة الإنتاج كانت تكتب الروايات الرومانسية. م

5- Francine Du Plessix Gray 1930-2019 روائيّة أميركية من أصل فرنسي حازت جوائز عدّة. م

ينحدر إلى هكذا تكتيكات. في حفل توقيع مجموعته: «*حديقة الدُّوار وقصص طويلة أخرى*»، ابتكر عبارةً مختلفةً لكلّ من طلب توقيعه: *أيها القارئ العزيز، أنا أحبّك* (احتفاء ساخرٌ بنمط شيلدز)، *لا وقت للكتابة ــــ تبّاً للحياة ــــــ*، أمّا الإهداء الأكثر حميميّة على الإطلاق فكان: *شكراً لك للتسوّق بالتجزئة*.

ماغي هيڤنور، محرّرة الكتب في منشورات جامعة شيكاغو، أخبرتني مرّةً أنّها حين تضيف إلى قائمتها كتاباً نفدت طبعته فإنّها تتصل بالمؤلّف/ ة وتطلب واحداً أصليّاً صالحاً لإعادة نسخه فوتوغرافيّاً. «غالباً المؤّلف هو من يستجيب» شرحت لي. «خلال أسابيع قليلة تصلني نسخةٌ محفوظة بعنايةٍ من كتابه، قد تكون مغبرّةً قليلاً لكن عدا ذلك فهي بحالةٍ ممتازةٍ. وعلى صفحة العنوان يطالعني الإهداء نفسه دائماً: *إلى أمّي*».

ذاك إهداءٌ حقيقيّ! أفضل ما في الأمر هو أنّه لغاية اتصال المحرّرة، الكتاب الذي يكرّمه الإهداء مستقرٌّ بالتحديد حيث يجب أن يكون: موقع الصدارة على رفّ الوالدة، وإلى هناك سيعود. كم تبدو بائسة بالمقارنة معه حشود النسخ الموقّعة التي نصادفها على رفوف متاجر الكتب المستعملة، وكلّ منها شاهدةٌ على خيانة صداقة. هل يعتقد الخونة أنّ عدم وفائهم سيبقى سرّيّاً؟! يؤسفني أن أجيبهم بأسى أنّهم واهمون. مئات الناس سيشهدون، بمن فيهم أحياناً، كاتب الإهداء شخصيّاً. وجد شو مرّةً في متجر كتب مستعملةٍ واحداً من كتبه يحمل الإهداء التالي: *إلى* () *مع تقديري. جورج برنارد شو*. فما كان منه إلّا أن اشترى الكتاب وأعاد إرساله إلى () بعد أن أضاف: *أجدّد تقديري. جورج برنارد شو*.

مرّة وجدتُ نسخة من «*سيّدة ماي فلاور*» موقّعة من سيدني بيدل باروز: *إلى باتريك... حكى لي ريتشارد الكثير عنك*. كان هنري ميللر ليكتب رواية كاملة عن هذا الإهداء! أمّا الإهداء التالي الذي صادفته في «*الكتاب الذهبيّ: قصّة الكتب الفاخرة وصناعة الكتب*» فيلزمه تورجينيف كي يكتب رواية عنه: *إلى والدي في عيد ميلاده، 16 آذار*

1928، كنوعٍ من عربون سلام؟ آلان. بعد سبعةٍ وستّين عاماً ما زالت إشارة الاستفهام تلك التي تفطر القلب معلّقة في الهواء. آمل أنّ «*الكتاب الذهبيّ*» وجد طريقه إلى متجر الكتب بعد موت الأب وليس العكس وإلّا... فعارٌ عليك أيّها الأب!

لحسن الحظّ، أروع الإهداءات، كأروع رسائل الحبّ، نادراً ما تغادر العائلة. الإهداء الأجمل برأيي - وهو شاهدٌ على أنّ فنّ الإهداءات الرومانسيّة لم يمت بموت بايرون- يتوّج كتاباً تملكه صديقتي مود غليزون هو الأعمالُ الكاملة لڤرجيل من إحدى إصدارات كلاسيكيّات أوكسفورد، هديّةٌ عزيزةٌ على قلبها تلقّتها عندما كانت تدرس صفّ العلوم الإنسانيّة الكلاسيكيّة في الجامعة نفسها. روت لي: «كنت في حانة كينغز آرمز، وهي الحانة الأقرب إلى مكتبة بودليان، مع زميلٍ لي اسكتلنديّ مندفعٍ وعنيد ادّعى ونحن نشرب القهوة أنّ ڤرجيل أعظم من هومر. باعتباري من أنصار الأخير فقد امتعضتُ كثيراً، مع ذلك، اضطررت للاعتراف بعد أن أخذ الحديث مجراه أنّني *لم أقرأ* ڤرجيل حقّاً. «إن كنتَ تعتقد ڤرجيل بهذه العظمة» قلت له بعنجهيّتي الأميركيّة «لمَ لا تهديني أعماله؟».

سرعان ما وجدت مود على بابها مجلّداً أزرق، يحمل على صفحة الإهداء ثلاثة عشر سطراً من الشعر المكتوب على الوزن السداسيّ بالتفعيلات اللاتينيّة - الوزن المفضّل عند ڤرجيل- يبدأ بـ: *Poscimur; atque aliquid quando tu, cara, requiris/Dabitur* (كلّي رجاءٌ، وعندما تطلبين يا عزيزتي، أيّ شيءٍ، سألبّيه)، ويتابع بعد فاصلةٍ: إلى مود، التي صرّح الاسكتلنديّ أنّه معجبٌ بها كما هو دأب جميع الشعراء أن يعجبوا بڤرجيل *quanto desiderat astra / Papilio volitans* (كما تتوق الفراشات المرفرفة للنجوم)، واختتم بعهدِ: *amoris amicitiaeque* المحبّةِ والصداقة.

- وماذا حصل بعدها؟ سألتُ مود التي تدرّس الكلاسيكيّاتِ الآن في ستانفورد.

- لم نمارس الحبّ مطلقاً، لكنّني وقعتُ في غرام ڤرجيل ونمت مع الكتاب مرّات عديدة.

أفضل إهداء تلقّيته *أنا* على الإطلاق - قد لا يكون مدوّخاً كإهداء الاسكتلنديّ لكنّه أغلى - مكتوبٌ على صفحة عنوانِ كتاب «*غموض الانتحار*» تأليف جورج هاو كولت. لم أنم مع الكتاب، لكنّني مارست الحبّ مع مؤلّفه كثيراً.

جاء في الإهداء: (أين أصبحنا يا جورج، منذ صداقتنا الجديدة الحقيقيّة):

إلى زوجتي الحبيبة... هذا كتابكِ أيضاً، كما أنّ حياتي هي لكِ.

أنت هناك

في 12 تشرين الثاني 1838 انطلق توماس بابينغتون ماكولاي بعربةٍ تجرّها الخيول من فلورنسا إلى روما. «غطّت رحلتي ساحة معركة ثراسيمِنوس» كتب في يوميّاته «وعندما أشرقت الشمس قرأتُ وصف ليڤي[1] لها».

ما إن قرأتُ هذه الجملة حتّى أدركتُ أنّني وماكولاي توأمان في الروح. صحيحٌ أنّني لم أصلح نظام التعليم الهنديّ، لم أكن عضواً في مجلس العموم، ولم أكتب خمسة مجلّداتٍ عن تاريخ إنجلترا... لكنّها تفاصيل هامشيّة. سيوافقني ماكولاي أنّنا متشابهان في أمرٍ أهمّ: كلانا نصيرٌ متحمّس لما أسمّيه أنتَ- تقرأ- هناك، وهي قراءة الكتب في البقعة الجغرافيّة التي تصفها.

اكتشافي أنّنا نتشاطر الشغف ذاته يبعث في نفسي شعوراً خاصّاً بالرضا. ماكولاي هو أعظم قارئ على مرّ العصور، بدأ يقرأ في سنّ الثالثة ومات في التاسعة والخمسين والكتاب مفتوحٌ أمامه، ما بينهما كان يقرأ الكتب كما علّق ابن أخته: «أسرع ممّا يتصفّح الآخرون كتبهم، ويتصفّح بسرعةٍ يلحق فيها غيره بالكاد أن يقلّب الأوراق». بشكل خاصّ، أحبّ أن يقرأ وهو يتنقّل من مكانٍ إلى مكان. قرأ «*أليس*» لبولوير لايتون[2]

1- Titus Livius يشار إليه اختصاراً بـ Livy مؤرّخ رومانيّ 59 ق.م -17م. كتب عملاً ضخماً عن تاريخ روما. م

2- Edward Bulwer Lytton 1803-1873 شاعر ومسرحيّ وسياسي بريطانيّ من أعماله المشهورة: «آخر أيّام بومبيي». م

وهو يقطع مستنقعات بونتين، «أفلاطون» وهو يتنزّه في الأراضي البكر لتونبريدج ويللز، وكتباً لا تحصى وهو يتجوّل بسرعةٍ في شوارع لندن المزدحمة دون أن يصطدم بأحدٍ على ما يبدو.

أثناء إبحاره إلى الهند، قرأ هومر، وڤرجيل، وسيزر، وهوراس، ودانتي، وبترارك، وأريوستو، وتاسو، وبيكون، وسيرڤانتس، وڤولتير بأجزائه السبعين كاملة... وهذه ليست إلّا قائمة مختصرة. «حبّ الكتب لهذه الدرجة نعمة» كتب إلى صديقٍ له «أن أكون قادراً على التحاور مع الأموات، وأن أحيا في الخيال».

قراءة ليڤي في ثراسيمِنوس - باللاتينيّة طبعاً - إنجازٌ مذهلٌ يخفق له قلبُ أيّ شخصٍ سبق له قراءة ووردزورث في غراسمير، وغيبون في روما، أو ثورو في والدن. ثراسيمِنوس هي بحيرةٌ شرقي إتروريا كانت مسرحاً لواحدةٍ من أسوأ الكوارث في تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة العسكريّ. عام 217 ق. م ، هانيبال، على ظهر الفيل الوحيد الناجي من أصل ثمانيةٍ وثلاثين انطلق بها قبل سنة قاطعاً جبال الألب، هزم الفيلقَ الرومانيّ بقيادة القنصل غايوس فلامينيوس في المعركة الثانية الكبرى من الحرب البونيّة الثانية بكمينٍ كلاسيكيّ: بينما كان الفيلق الرومانيّ يسير فجراً عبر ممرّ ضيّق تحدّه هضابٌ شديدة الانحدار من جهة والبحيرة من الجهة الأخرى، هوجم من محاور ثلاثةٍ في آنٍ واحد: من الأمام، ومن الخلف، ومن جهة الهضبة من قبل المشاة القرطاجيّين الذين اندفعوا كسيلٍ جارفٍ يحجبهم عن العيون ضبابٌ كثيفٌ واطئ. الرومان الذين لم يُمزّقوا إلى قطعٍ انتهوا إلى البحيرة، حيث قضى معظمهم غرقاً تحت وزن الدروع... خلال ثلاث ساعاتٍ، مات 15000 رومانيّ.

عندما فتحتُ الجزء الثاني والعشرين من تاريخ ليڤي عن روما لأقرأ وصفه للمعركة - الذي كتبه بعد ما يقارب مئتي عامٍ على هزيمة فلامينيوس- توقّعت وصفاً جافّاً. لكن، في الصفحة الخامسة بدأت

أشعر بالإثارة، في الصفحة العاشرة تسارعت دقّات قلبي... وهذا بمجرّد القراءة في *غرفة جلوسي*. لقد غاب عن بالي كم كان القتال قبل اختراع الأسلحة الناريّة وحشيّاً ودمويّاً وحميميّاً، كم كان يجب أن تقترب من عدوّك كي تطعنه بسيفك أو تغرز رمحك في صدره. «الضباب كان كثيفاً جدّاً لدرجة أن الأذن كانت أهمّ من العين» كتب ليڤي:

تعالى نحيب الجرحى وصدى الضربات على الأجساد والدروع، تداخل صراخُ المهاجِمين والمهاجَمين، فأخذ [الرومانيّون] يتلفّتون يميناً وشمالاً محاولين أن يروا. عندما استنتجوا أنّ خلاصهم يكمن في سيوفهم وأذرعهم اليمنى، أصبح كلّ منهم قائد نفسه وهبّ للقتال... في غمرة انفعالهم وحماسهم كانوا مأخوذين بالمعركة لدرجة أنّه لو وقع زلزال عنيفٌ يهدّم أجزاء واسعة من عدّة مدن في إيطاليا، ويحرف الجداول عن مساراتها، ويرفع موج البحر فوق الأنهار، ويخسف الجبال مسبّباً انهياراتٍ صخريّة كبرى... لما أحسّوا به.

بعد ألفين وخمسةٍ وخمسين عاماً كتب ماكولاي: «كنت في الموقع ذاته الذي وقف فيه القنصل فلامينيوس مختبئاً كليّاً في الضباب الصباحيّ... لذلك باستطاعتي القول إنّني رأيت ما رآه الجيش الرومانيّ بالضبط في ذلك اليوم». لقد وصل ثراسيمِنوس في التوقيت نفسه وفي الطقس نفسه كما يوم المعركة! عندما أوصلته عربته إلى قمّة الهضبة فوق مستوى الضباب، تكوّنت عنده مثل هانيبال رؤيّة شاملة للمشهد. «أدركتُ عندها الميزة العظيمة التي كسبها هانيبال بتمركز قوّاته في الأعلى: باستطاعة القرطاجيّين رؤية بعضهم بعضاً بوضوح، بينما يتخبّط الرومان ويتلمّسون طريقهم في الضباب الذي يلفّهم في الأسفل دون أن يستطيعوا التواصل أو التنسيق فيما بينهم». *Haec est nobilis ad Trasumennum pugna.* هكذا كانت معركة ثراسيمنوس الشهيرة. هكذا كانت محاورة ماكولاي مع الأموات.

ما الذي يجعل أنت- تقرأ- هناك أمراً مثيراً لنا نحن المهووسين أكثر

من أنت - تقرأ- في- مكان- آخر؟ لأنّ الصورة المجرّدة التي يرسمها العقل بالقراءة ليست نسخة مطابقة للواقع. نحن نريد أن ندخل إلى الصفحات تماماً كما جعل وودي آلن بطله البروفيسور كوجلماس[3] يدخل رواية «*مدام بوڤاري*» مثيراً زوبعة من التشوّش بين الأكاديميّين حول هذا النيويوركيّ الأصلع المتأنّق ببدلةٍ غير رسميّة الذي ظهر فجأة في الصفحة 100. بما أنّ ذلك مستحيلٌ، فالـ «العيش وسط الخيال» على طريقة ماكولاي يعني الذهاب إلى المكان الفعليّ الذي يتحدّث عنه الكتاب: كلّما اقتربنا منه كان أفضل. مثلاً قراءة شتاينبك في مونتيري لا تنفع، يجب قراءته في كانيري رو. حتّى هذا لا يرضينا... كانيري رو تغيّرت خلال نصف قرنٍ أكثر ما تغيّرت ثراسيمنوس في ألفي عام، ولم تعد التفاصيل على الورق تطابق أرض الواقع. تجربة أنت- هناك المثاليّة يلزمها، كما فعل ماكولاي، أن نرى *بالضبط* ما وصفه المؤلّف بحيث لا يلزمنا لاستحضار تجربته سوى زمّ العينين قليلاً للتركيز.

أنا شخصيّاً لم أختبر محاكاةً حسيّة لتجربة أنت- هناك توازي ما قام به صديقي آدم، عندما قرأ الجزء التاسع من الأوديسة بالإغريقيّة داخل مغارةٍ في صقلّية يُعتقد أنّها كهف السيكلوب الحقيقيّ تفوح منها رائحة روث الخراف إلى درجةٍ يصحّ وصفها بالـ: ملحميّة. لكنّني قرأت بيتس في سليغو، وآيزاك دينزن في كينيا[4]، وجون موير[5] في جبال السييرا نيڤادا. أروع تجربة أنت- هناك بالنسبة لي كانت قراءة يوميّات جون ويزلي پاول - وهو محارب قديمٌ في الحرب الأهليّة ذو ذراع واحدة

3- The Kugelmass episode قصة وحلقة من مسلسل تلفزيوني ظهرت في 24 نيسان 1977 وفيها يلتقي البروفيسور كوجلماس الغارق في متاعبه اليوميّة بساحر يتيح له استعمال كابينة سحريّة تنقله بين الروايات كأنّه يعيشها. م

4- Isak Dinesen 1885-1962 كاتبة دانمراكية الأصل كتبت بأسماء مستعارة كثيرة. أشهر رواياتها: «الخروج من أفريقيا» تصف فيها حياتها في كينيا. م

5- John Muir 1838-1914 لقّب بجون الجبلي وأبي المتنزهات الوطنية. كان عالم طبيعة وفيلسوفاً بيئيّاً وداعية للحفاظ على الحياة البرية في أميركا. م

قاد أوّل حملةٍ لاستكشاف نهر كولورادو - بينما كنت أخيّم قرب نهر غرانيت رابيدز في قاع الغراند كانيون.

تفوّقت على ماكولاي بنقطةٍ حاسمة: لقد انطلق وحيداً في رحلته الكبرى دون أن يرافقه من يشاركه نشوة ثراسيمنوس إلّا شبح ليفي، بينما كنتُ أنا مع جورج نقوم بأوّل رحلةٍ لنا معاً، وبُحنا فيها بالكثير من الأسرار: خوف جورج من الفئران، وسادتي الصغيرة التي لا أذهب للتخييم بدونها، وأنّ كلينا نحبّ الغطس عاريين في ماء قارس البرودة لدرجةٍ تسبّب الصداع.

وحيدين على شاطئ يشبه بياضُه بياضَ الشواطئ الكاريبيّة، تحيطه جروفٌ من صخور الشِّست[6] السود والغرانيت الورديّ، غسل كلّ منّا شَعر الآخر في نهر كولورادو ثمّ جلسنا إلى جوار المياه الهادرة نطالع *استكشاف نهر كورلورادو وأوديته*.

«قرأ ج. من پاول» كتبتُ تلك الليلة في مذكّراتي على ضوء الشمعة «مسنداً الكتاب على ساقيه العاريتين. مذهلٌ أن أسمع عن معدّات پاول ومؤونته وكيف كان الإبحار في تيّارات النهر الهادرة عسيراً بينما نجلس هنا *أمام النهر بالضبط*!» كان هناك رسمٌ لنهر الغرانيت رابيدز في الكتاب. لم يتغيّر على الإطلاق.

«نحن جاهزون للانطلاق في رحلتنا عبر المجهول الأعظم» قرأ جورج: «زوارقنا، مربوطة إلى وتدٍ واحد، تتدافع بينما يهدهدها النهر الهادر... أمامنا مسافةٌ غير معلومةٍ نقطعها، ونهرٌ مجهولٌ نستكشفه. كم من الشلّالات هناك، لا نعرف. ما هي الصخور التي تسدّ المجرى، لا نعرف. ما هي الجروف التي تحيط بالنهر، لا نعرف». لم نمتلك أدنى فكرة في ذلك الوقت أنا وجورج أنّ هذه العبارات هي من أشهر الجمل في أدب الحملات، واعتقدنا أنّنا اكتشفناها. أنا شاكرةٌ لبراءتنا ولأنّي لم أكن أعرف حينها أنّ مذكّرات پاول خليطٌ من ملاحظاتٍ هزيلةٍ خربشها

6- Schist صخور تتألف من طبقات متميزة بعضها عن بعض من معادن عديدة متبلورة. م

على قصاصاتٍ من ورق أسمر خلال حملته تلك، عزّزها بانطباعاته في حملةٍ لاحقةٍ بعد سنتين، ثمّ نقّحها مرّتين قبل النشر.

بصوتٍ لا يكاد يُسمع وسط هدير النهر الذي يرغي ويزبد، قرأ جورج كيف علقت زوارق الحملة في الدوّامات، وكيف اصطدمت بالصخور وانقلبت في الشلّالات، وكيف فقدوا المؤونة والمجاذيف والأسلحة ومقاييس الضغط والبطانيات وأحد الزوارق. في الأجزاء الأصعب من مسار النهر، بما في ذلك الجزء الممتدّ تحت أقدامنا، لم يستطع پاول المناورة يميناً، ولا يساراً، ولا أن يبطئ سرعته ولا أن يترك زورقه الذي تسرّبت إليه المياه أو يقوم بأيّ فعلٍ عدا التشبّث بحزامٍ جلديّ ربطه إلى الحافّة، متابعاً الإبحار كمن يركب حصاناً هائجاً. بعد سنواتٍ عديدة عندما قرأتُ ليڤي، صعقني كم يتشابه ارتباك پاول المشحون بالأدرينالين مع ما مرّ به الجنود الرومان في ثراسيمنوس... لن يلاحظ من يتخبّط في نهر الغرانيت رابيدز كذلك وقوع زلزال!

«الطقس ماطرٌ وباردٌ للغاية الليلة» تابع جورج. «خيامنا القماشية الصغيرةُ متعفّنة وعديمة النفع، ومعاطف *البونشو* المطاطيّة التي انطلقنا بها من مدينة غرين ريڤر ضاعت كلّها، وأكثر من نصف الفريق بلا قبّعات، ولا أحد منّا يمتلك مجموعة متكاملة من الملابس، وليس معنا بطانيّات كافية... نحن نجلس طيلة الليل على الصخور مرتجفين». تلك كانت ليلة 17 آب 1869، وپاول ورجاله قد اجتازوا للتوّ نهر الغرانيت رابيدز. تدثّرنا أنا وجورج بألبستنا المصنوعة من النايلون والقماش المضادّ للماء عندما غربت الشمس خلف الجهة الجنوبيّة للوادي. «بالنسبة لنا، نعيش فقط وهم المحنة والاكتشاف» كتبتُ. «أمّا پاول فعاش الواقع فعليّاً».

الخلاصة: الوهم دائماً، وليس المغامرة الحقيقيّة. أو هكذا اعتقدتُ حتّى السنة الماضية!

لدينا طفلان الآن أنا وجورج، وبالتالي مغامراتنا أقرب إلى المنزل.

عندما كانت ابنتنا في الرابعة، أخذت قصّة «*إيلويز*»[7] معها عندما ذهبنا لتناول الشاي في فندق البلازا. ماكولاي لم يقاتل أبداً في ثراسيمنوس، ولم أبحر أنا في نهر كولورادو، لكنّ سوزانا اختبأت *حقّاً* خلف الستائر المخمليّة الحمراء في القاعة الكبرى، تزحلقت في ردهة الطابق الخامس عشر، وظلّت تدور مع الباب الدوّار الذي يحمل علامة qp إلى أن داخت. عند دخولنا إلى قاعة بالم كورت، فتحت كتابها على الصفحة 40. تراقصت عيناها جيئة وذهاباً بين صحن كعكة الزبيب المدوّرة على الطاولة ذات الرفوف الثلاثة في الصورة، وبين صحن كعكة الزبيب المدوّرة على الطاولة ذات الرفوف الثلاثة أمامها.

لم تقل شيئاً. لكنّني عرفتُ بماذا كانت تفكّر: أنا هناك!

7- Eloise سلسلة قصصية بقلم كاي ثومبسون نُشرت عام 1955. تعيش بطلتها إيلويز في فندق البلازا. م

معضلة لها / له[1]

عندما كنتُ في التاسعة عشرة، أجرى معي ويليام شون مقابلة لمنحي وظيفة في مجلة *النيويوركر* في أثناء الصيف. كي تدركوا الأبعاد الكاملة لأهميّة ما سيلي، سأخبركم أنّني كنتُ أعتبر *النيويوركر* كاتدرائيةً ومستر شون بمقام إله، ولم أكن لأستغرب رؤية هالةٍ نورانيّة خافتةٍ تتألّق حول شعره الأحمر.

خلال المقابلة سألني ما هي المجلّات الأخرى التي أطمح بالكتابة فيها.

«امممم... *اسكواير*، و*ذا ساترداي ريڤيو*، و...».

أوشكتُ أن أقول «*Ms.*»: مِز. لكن لم يكن لديّ أدنى فكرة عن كيفية لفظ الاسم. مع ذلك... فات الأوان على انسحابٍ تكتيكيّ، فشفتاي قد تكوّرتا للتوّ كي تلفظا حرف إم. كي. لا تتسرّعوا باستنتاج أنّني ترعرعتُ في أولان باتور[2]، سأذكّركم أنّه عندما التقيتُ مستر شون في عام 1973 كانت مجلة *Ms.* قد بدأت بالصدور منذ أقلّ من عام، ومعظم الناس بمن

1- تتناول المقالة موضوع استخدام الأسلوب المحايد جندريّاً في الكتابة بحيث لا تُطمَس النساء في التعميم بالإشارة إلى العالم كبيئة يكون فيها الذكر هو الأصل والأنثى «مفهومة ضمناً». فضّلت الإبقاء على المفردات الإنجليزيّة الواردة في النصّ الأصلي كما هي كي لا تضيع الفكرة التي أرادت فاديمان إيصالها للقارئ، كون المفردات الإنجليزيّة المحايدة جندريّاً ستتحول تلقائيّاً إلى مفردات مذكّرة ومؤنّثة بترجمتها إلى العربيّة التي تميّز بنيويّاً بين الجنسين. م

2- عاصمة منغوليا. م

فيهم أنا لم يسمعوا بعد بكلمة مِز .*Ms* كلقب في التخاطب. (ناداني مستر شون - الذي كان كتّاب *النيويوركر* يبجّلونه جدّاً لدرجة أن لقب مستر «السيّد» قد أصبح فعليّاً جزءاً من اسمه - بـ: مِس «الآنسة» فاديمان). لفظُ .*Ms* البدهيّ اليوم لم يكن واضحاً كما تعتقدون، مستر .*Mr* لا تُلفظ مير Mir ، ومِسز .*Mrs* لا تُلفظ ميرز Mirz. إذن ما هي .*Ms*؟ هل هي مززز Mzzz أو ميز Miz أو مَز Muz؟؟ بعد انقضاء ثانية مصيريّة، نطقتُ دون قصدٍ إم. إس. كما نلفظ *ms* أيّ اختصارَ مخطوط manuscript.

مستر شون لم يرمش، ولم يبدُ عليه ما يوحي أنّني ارتكبتُ خطأ، بل تابع النقاش معي بهدوء عن المجلّة النسويّة الجديدة - تاريخها، وميّزاتها، وعيوبها، والفرص التي قد تتيحها لكاتبة ناشئة مثلي - لأربع أو خمس دقائق *دون أن يتطرّق إلى اسمها أبداً*. منذ ذلك التاريخ، كلّما سمعتُ أحداً يتحدّث عن الرُّقيّ يخطر مستر شون ببالي فوراً، ذلك الرجل الراقي للغاية الذي، كي يجنّبني الإحراج، تجنّب حقلَ ألغامٍ غاصٍّ بكلمات مِز .*Ms* دون أن يفجّر ولو واحداً. صنيعه يشبه ما قامَ به الكاتب التجريبيّ الفرنسيّ جورج پيريك الذي كتب روايةً من 311 صفحة دون أن يستعمل حرف e واحد.

بعد أن غادرت المبنى، اتصلتُ بصديقةٍ وسألتها: «كيف تلفظين تلك الكلمة الصغيرة؟... آه، يا إلهي، آه، كلّا!!!). كانت لحظة رهيبة! لا عجب أنّ مستر شون قد فعل ما فعله، فإقدامي على الانتحار في كابينة هاتف عموميّ أفضل ألف مرّةٍ من الانتحار في مكتبه.

خلال ثلاثةٍ وعشرين عاماً - طرفة عينٍ في تاريخ اللغات - تحوّلت الكلمة الصغيرة الجديدة من همهمةٍ غامضةٍ إلى مصطلحٍ روتينيّ. منذ البداية، أدركتُ كم كانت منطقيّة ومُنصفة. لمَ يجب أن يعرف الناس فوراً ما إذا كانت المرأة - ولكن ليس الرجل - متزوّجة؟ هل يعنيهم ذلك؟ حاجتنا إلى مِز لا تقبل الجدل. العقبة الوحيدة هي نطقها المزعج، فوقعها في الأذن يشبه صوت آلة جزّ العشب... لكنّ أذني تآلفت معها بالتدريج.

اليوم - وهي نقطةٌ هامشيّة، فكلّ الناس عدا مندوبي التسويق عبر الهاتف ينادونني آن - بعد حذف الاحتمالات الباقية أنا: مِز فاديمان. لا يمكن أن أكون مِس «الآنسة» فاديمان لأنّني متزوّجة، ولا مِسز «السيّدة» فاديمان لأنّ زوجي هو مستر كولت، ولا مسز كولت لأنّني احتفظتُ بكنيتي الأصليّة قبل الزواج... لذلك -عَجَبي - أنا المرأة التي اخُترِعتْ لأجلها كلمة مِز!

في حقل السياسات الجندريّة الدمويّ، حقّقت مِز نصراً ساحقاً. أتمنّى لو تحقّق الأمر نفسه في، على سبيل المثال، كتاب الترانيم الحصريّ لكنيسة المسيح المتّحدة، الذي استبدل «أبانا، يا ربّ آدم» بـ«يا إلهنا يا من تحيط البشريّة بعنايتك». التغيير جديرٌ بالاحترام لكنّ الأسلوب هو ما يغيظني، فلا أريد من إلهٍ لا يكترث بالشِّعر أن يحوطني بعنايته. في الوقت نفسه، لا أستطيع القول إنّ النسخة القديمة كانت ترضيني مقارنةً مع المحدّثة... سلامي الذاتيّ كقارئةٍ وكاتبةٍ مرهونٌ في أغلب الأحيان بالحرب في أعماقي بين شخصيّتين تتصارعان في مجال دلالات الألفاظ، الأولى نسويّةٌ والثانية محافِظة. معظم الذين كتبوا عن التحيّز الجندريّ في اللغة ينتمون إلى هذا التيّار أو ذاك، ويريدون إمّا أن ينسفوا كلّ شيءٍ أو العكس، أن يتجاهلوا الموضوع برمّته.

هل أنا الوحيدة الممزّقة؟!

في مجال المفردات، كما في المجالات الأخرى، وُلِدتْ شخصيّتي النسويّة من رغبةٍ بسيطةٍ بالمساواة. استخدام المفردات المحايدة جندريّاً مثل *flight attendant* (مضيف/ ة طيران)، *firefighter*، (إطفائيّ/ ة)، *police officer*(شرطيّ/ ة)[3] هي خطوةٌ صريحةٌ للأمام، جزءٌ من عمليةٍ أُطلِقتْ خلالها رصاصة الرحمة على مفرداتٍ سقيمةٍ كـ*authoress*

3- تستعمل ألقاب الوظائف المذكورة بالصيغة ذاتها للنساء والرجال في اللغة الإنجليزيّة. م

(مؤلّفة) و *sculptress* (نحّاتة)[4] - حمداً لله - والتي تعمل الآن على التخلّص من المفردات المثيرة للغثيان بأنوثتها الفائضة والتي تنتهي باللاحقة -ette[5] مستعيضةً عن *Usherettes* (الحاجبات) بـ*Ushers* و *Suffragettes* (الناشطات في مجال حقوق المرأة) بـ*Suffragists*. (تزعجني على وجه الخصوص الكلمات التي تجعل المرأة ضئيلة وناعمة، منذ تلك الليلة التي كنّا فيها أنا وزميلاتي في السكن الجامعيّ نتناقش حول الحيوانات التي نشبهها. كنتُ أطمح إلى كائنٍ مهيبٍ، ظبي الإيلاند[6] مثلًا أو البومة القرناء الكبرى، لكنّ صديقتيَّ اخترن لي السنجاب بالإجماع! معجزةٌ أنّ أحداً لم يلقّبني بـauthorette «الكاتبة الصغيرة» بأخذ هذه الواقعة التاريخيّة بعين الاعتبار).

شخصيّتي المحافظة على أيّ حالٍ تسيطر على الموقف عندما أسمع شخصاً يحاول الالتفاف على التمييز الجندريّ باستبدال محدّد المُلكيّة العائد على الإناث (لها) her أو على الذكور(له) his، بمحدّد المُلكيّة العائد على الجماعة (لهم) theirs . عدم التوافق بين الضمير وبين ما يعود عليه يفوق طاقتي على الاحتمال. كي تفهموا شعوري تجاه النحو تذكّروا أنّني ترعرعتُ في ذلك النوع من العائلات، حيث طُلب منّي في العاشرة أن أقول دائماً *hoi polloi* (العوام) وليس the *hoi polloi* لأنّ *hoi* بحدّ ذاتها هي أل التعريف، واستخدام أداتي تعريفٍ متتاليتين the, hoi لا لزوم له ولا يقوم به إلّا أحد العامة. (لماذا ستستخدم طفلةٌ في العاشرة مصطلح *hoi polloi* في المقام الأوّل مسألةٌ مَرَضيّةٌ أصعب لن نخوض فيها هنا).

4- استبدلنا بكلمتين محايدتين جندريّاً تستعملان للنساء والرجال دون تمييز هما Author و Sculptor. م

5- جاءت هذه اللاحقة من الفرنسيّة حيث تستخدم للتصغير والتحبب، فاستخدمتها الإنجليزية مع الأسماء الفرنسية الأصل التي تدل على المهن النسائيّة وظلّت تفيد التصغير. م

6- Eland ظبي إفريقيّ ضخم ذو قرنين قصيرين مفتولين. م

أدعو قضيّة محدّد المُلكيّة تلك بمعضلة his'er[7] تيمّناً بالحلّ الذي اقترحته مديرة مدرسة شيكاغو إيللا يونغ عام 1912: His'er. أنا آسفة. ببساطةٍ لا أستطيع. شخصيّتي المحافظة لديها معايير نحويّة وجماليّة وكلمة His'er هي مسخٌ، يستحيل أن تصبح بدهيّة على عكس مِز *Ms.* (أضيف هنا أنّني طرحتُ معضلة his'er على أخي الذي ترعرع في المناخ الثقافيّ المتقدّم بالنسبة للعمر نفسه معي ففاجأني بردّه: «لن أستعملها مطلقاً. إنّها بمثابة النكوص للبربريّة! لكنّني مستعدٌّ للتفكير بنحتٍ لغويّ آخر مقبولٍ إيقاعيّاً مثل *hyr* أو *hes*، وهو بدوره أفضل من تجنّب استعمال محدّد المُلكيّة العائد على الذكور باللجوء لتخطيط الجمل استباقيّاً كأنّها حملةٌ عسكريّة». واضحٌ أنّ أخي لا يتحمّس للتحديّات ذاتها مثل السيّدين شون وبيريك).

ماذا عن استخدام *his, her* معاً؟ ألجأ أحياناً إلى هذا التركيب لكنّني أجد استخدام ضميرين في الجملة نفسها عبئاً ثقيلاً لا يضيف فائدة، وغالباً ما أعيد الكتابة بصيغة الجمع مع أن ذلك مزعج أيضاً. الجملة التي لا يتشوّه أسلوبها مثل (كلّ الكتّاب ضليعون بمهنتهم) - وهي أبشع قليلاً من (كلّ كاتبٍ ضليعٌ بمهنته) - تفقد خصوصيّتها، تلك اللحظة المسروقة التي يستحضر القارئ فيها كاتباً بعينه (إيزايا برلين من جهة، وروبرت جايمس واللر[8] من جهةٍ أخرى) عوضاً عن حشدٍ عديم الملامح من الكتّاب.

مع ذلك... لن أنكر! لقد ظللتُ أعمّمُ باستخدام محدّد المُلكيّة العائد على الذكور his إلى ما يقارب خمس سنواتٍ مضت، مصدّقة ما علّمني إيّاه كتاب قواعد الصفّ السادس «*تمارينُ مبسّطةٌ في اللغة الإنجليزيّة*»: أنّ *her* مفهومةٌ ضمناً، مثلما النساء عموماً مشمولاتٌ ضمناً في مكانٍ ما داخل «بني آدم».

7- اشتقاق لغويّ غير موجود في الإنجليزية بدمج his مع her في كلمة واحدة لاستخدامها كبديل لأيّ منهما. م

8- Robert James Waller 1939-2017. روائي أميركي اشتهر عام 1993 برواية «جسور ماديسون كاونتي» التي تحوّلت إلى فيلم. م

لم أعد أفهم شيئاً!

ذات يوم، قرأتُ العبارة التالية بقلم مَثَلي الأعلى المحبوب إي. بي. وايت[9]: «شيءٌ واحدٌ لا يمكن لكاتب المقالات فعله: أن يتساهل مع نفسه بالكذب أو بالخداع، لأنّه سيُكتَشف عاجلاً أم آجلاً». شعرتُ بالباب يُصفق في وجهي بقوّةٍ والريحُ تصفع خدّي. «لكنّ الكاتب المقصود بكلامه *يشملكِ!*» البعض منكم قد يغمغم. «مفهومٌ ضمناً!». لا أعتقد ذلك!

منذ زمنٍ طويلٍ كتب والدي شيئاً مماثلاً: «أفضل المقالاتِ لا تطوّر ثيماتٍ أصليّة، بل رجالاً أصليّين: كتّابها». بمّا أنّ أبي، عكس إي. بي. وايت، ما يزال على قيد الحياة ليشرح موقفه، اتّصلتُ به الليلة الماضية وسألته: «أجبني بصدق، ما الذي كان يدور في بالك عندما كتبتَ هذه العبارات؟».

«الذكور. كنتُ أفكّر بالذكور. كنتُ أستعرض عالم الأدب، بل في الواقع، كلّ عالم الإبداع الفنيّ كعالمٍ ذكوريّ، وكذلك فعل معظم الكتّاب. أيّ كاتب ينتمي لحقبة الخمسين سنةٍ الماضية ينكر هذا فإنّه يكذب. أعني أيّ كاتبٍ ذكرٍ».

رغم أنّ والدي وإي. بي. وايت لم يكونا عدوّين للمرأة، لكنّهما في حقيقة الأمر *لم يعتبراها* موجودةً، ولغتهما عكست وعزّزت تلك البقعة العمياء.

اكتشفتُ أنّنا نحن النساء غير مرئيّاتٍ قبل خمسة عشر عاماً، عندما دخل إلى منزلنا كتابٌ حقّق أفضل المبيعات عام 1946 وأعيد إصداره آنذاك في طبعةٍ بغلافٍ ورقيّ هو «*رعدٌ من الصين*»، يتناول دور الصين في الحرب العالميّة الثانية. اشترك في تأليفه تيودور.هـ. وايت وآنّالي جاكوبي، والدتي. ذُكر وايت 19 مرّة في تقديم هاريسون سالزبوري

9- E.B.White 1899-1985 كاتب أميركي كتب في النيويوركر أكثر من خمسين عاماً، من مؤلّفاته المشهورة للأطفال قصة الفأر الصغير ستيوارت ليتل. م

للنسخة الجديدة، وأمّي مرّةً واحدةً لا غير. جملة سالزبوري الافتتاحيّة كانت: «في النهاية، لا بديل عن الرجل المناسب في المكان المناسب واللحظة المناسبة». راسلته مقترحة أنّه أحياناً، على سبيل المثال في نصف *رعدٍ من الصين*، لا بديل للمرأة المناسبة في اللحظة المناسبة والمكان المناسب. لأفيَه حقّه، فقد ردّ معترفاً بخطئه: «آخ، آخ، آخ ! أنت على حقّ تماماً. أنا مخطئٌ كليّاً. أنت الشخص الثاني الذي لفت نظري إلى الموضوع، لكن بماذا أستطيع أن أردّ؟ إنّها إحدى تلك الأفعال الغبيّة التي أقترفها أحياناً». لا أعتقد أنّ دافع سالزبوري هو الخبث أو التعصّب المسبق للذكور. أمّي، لمجرد كونها امرأة، كانت في المكان الخطأ في اللحظة الخطأ.

كما يتذكّر الجميع، اعتاد والدي طيلة حياته مخاطبة أيّة امرأة تصغره بعشر سنواتٍ بـ: يا بنت! وبما أنّه في الحادية والتسعين اليوم فهذا يشمل الكثير من النساء. بالمقابل، لم أسمعه يوماً ينادي أيّ شابٍّ فوق الثامنة عشرة بـ: يا صبيّ! حاولت إقناعه بتصحيح أسلوبه لكن عبثاً. الكلمة محفورةٌ في عقله ويستخدمها برقيّ فارس: فهو يؤمن حقّاً أنّه في أعماق أيّة امرأةٍ سمينةٍ بيضاء الشعر في الثمانين من عمرها، هناك قبسٌ من ذلك الكائن الرشيق الغضّ: البنت.

لو كان والدي ما يزال يكتب المقالات، لغيّر قلمُ المحرّر كلّ «بنتٍ» بالغةٍ إلى «امرأة». الشيء ذاته يقال عن إي. بي. وايت، في مقالةٍ عنوانها: «البحر والريح التي تهبّ» يصف زورقاً شراعيّاً صغيراً بأنّه «لا يشبه الصندوق، بل هو أقرب إلى سمكةٍ أو عصفور أو فتاة».

لا أظنّ أنّه يعني طفلة في العاشرة، بل فتاة لها من العمر ما يؤهّلها أن تكون امرأة. لكن لو قارن قاربه مع امرأة، فإنّ زورقه الصغير الرشيق، وجملته كذلك، سيتباطآن للأبد.

الفكرة التي أودّ إيصالها هنا بسيطة: تغيير لغتنا كي يصبح الرجال والنساء سواسيّة له ثمن، وهذا الثمن لا يعني أن نقف ضدّ التغيير- أمورٌ

كثيرةٌ جديرةٌ بكلفتها الباهظة – بل إنّ خسارتنا الطائشة للأسلوب الأدبيّ الرفيع تستحقّ أن نحزن عليها أوّلاً، من ثمّ نتقبّلها بكلّ رقيّ، من قبل كلّ كاتبٍ/ ة ضليعٍ/ ة بمهنته/ ها.

أدخِلْ جزرة

خلال زيارتنا مؤخّراً أنا وأخي إلى فلوريدا حيث يقيم والدانا، تناولنا العشاء معهما في مطعمٍ راقٍ. بمجرد أن أحنينا رؤوسنا على قائمة الطعام، عدا والدي الذي لا يُبصِر، أدركتُ أنّ تعابير التركيز المتشابهة التي علتْ وجوهنا جميعاً لا علاقة لها باختيار الأطباق.

- لقد عكسوا موضع حرفي e و i في صلصة ماديرا. علّق أخي.

- كتبوا جبنة بيل پايز[1] ككلمة واحدة، وبأحرف صغيرة. قلتُ.

- على الأقلّ يتقنون التهجئة أكثر من المطعم الذي تناولنا فيه عشاءنا الثلاثاء الماضي. قالت أمّي. هناك قدّموا لنا بطّ بيكِنغ PEAKING[2].

تبادلنا النظرات. كنّا نعتقد أنّنا آل فاديمان قد اكتشفنا أبعاد هويّتنا العائليّة الشاذّة بالتفصيل بعد مرور كلّ السنين، لكننّا كلّنا على ما يبدو نشترك بجينةٍ عائليّةٍ متوارثةٍ لم نعرف بوجودها من قبل: الوسواس القهريّ بتصحيح ما نقرأ.

انسابت اعترافاتنا خلال العشاء كأنّها صلصة ماديرا تندلق على مفرش طاولة. روى أخي كيف عثر على مئات الأخطاء - أخطاءٍ في التهجئة والنحو وتركيب الجمل- في دليل تشغيل برنامج للكمبيوتر يتألّف من 364 صفحة كان يتدرّب عليه في الشهر الماضي. الأطرفُ أمرٌ يتكرّر

1- Bel Paese جبنة إيطاليّة طريّة. م

2- الصحيح هو بطّ بكين Beijing. م

كثيراً: أدخِلْ جزرة[3]. راسل أخي شركة البرمجيّات، عارضاً إرسال قائمةٍ كاملةٍ بالتصحيحات لقاء الحصول على النسخة الأحدث من البرنامج، لكنّه لم يتلقّ ردّاً. «إنّهم مصرّون أن يكونوا على خطأ» تنهّد. أعلم أنّ «هم» لا تعني برأيه شركة البرمجيّات فقط، وإنّما تشمل أيّ شخصٍ لا ينتمي إلى عائلة فاديمان.

اعترفت أمّي أنّها تملأ مغلّفاً كبيراً بالأخطاء التي دأبت على قصّها على مدى سنواتٍ من الصحيفة المحليّة *ذا فورت مايرز نيوز برس*، بنيّة إرسالها إلى المحرّر عندما تبلغ حدّاً حرجاً.

أبي، الذي عمل كمدقّق لغوي في سنّ الرابعة والعشرين – في الواقع، كان قسم التدقيق اللغوي بأكمله مؤلّفاً منه فقط – في سايمون وشوستر، اعترف أنّه في أوج شبابه وغروره كان معتاداً على تصحيح قوائم الطعام في مطاعم مانهاتن الفخمة، من ثمّ تسليمها إلى رئيس الندل عند الخروج. قام كذلك بتصحيح كتب *المكتبات العامّة* مالئاً حواشيها برموز ¶ ، lc و ⁐ التي لم تكن تشويهاً للكتب في نظره وإنّما «تحسينات». عندما فقد البصر قبل ثلاث سنواتٍ، أمضى ليلته مؤرّقاً وهو يفكّر بماهيّة العمل الذي سيقوم به من الآن فصاعداً، وتفتّق ذهنه عن الخطّة التالية: سيقضي اثنتي عشرة ساعة يوميّاً أمام التلفاز ويدقّق أخطاء القواعد واللفظ سماعيّاً... إن تقاضى خمسة دولاراتٍ عن كلّ غلطةٍ سيجمع ثروة! تبخّرت خطته صباحاً عندما تذكّر أنّ شبكات التلفزة، كشركة البرمجيات، ليست عائلة فاديمان لذلك لا يهمّها أن تتطوّر.

حين جاء دوري، اعترفتُ بفصلٍ قاتمٍ من غطرسة شبابي. في الثالثة والعشرين، اكتشفتُ خمسة عشر خطأً طباعيّاً في «*تكلّمي أيّتها الذكريات*» لنابوكوف بطبعةِ بيراميد ذات الغلاف الورقيّ. (أمثلة: ص25 فقرة 2 السطر 13: عاصفة رعديّة hundercould بدلاً من thundercloud، ص 99، ف 1، س 28: أستيلين كُتبت acytelene لا acetylene، ص 147، ف1،

3- يرد في البرنامج Insert carrot عوضاً عن caret وهو رمز ^. م

س27: روكوكو كُتبت rocco وليس rococo). لطالما اعتبرتُ نابوكوف ساعياً إلى الكمال- ألم يكتب مرّةً: «عندما نقرأ، علينا أن ندقّق ونحتفي بالتفاصيل»؟!) لذلك كتبتُ إليه رسالة أعدّد فيها الأخطاء التي اكتشفتها واحتفيتُ بها، مفترضة أنّه سيعمل على تصحيحها في الطبعة التالية. أستحقّ صفعةً بالطبع على حشريّتي، لكن مهلاً... بعد ثلاثة أسابيع وصلني بالبريد الجويّ ظرفٌ أزرق خفيفٌ مُرسَلٌ من فندق المونترو بالاس ومختومٌ بختم البريد السويسري. بداخله رسالة من ڤيرا إيڤسييڤنا نابوكوف - المرأة التي أشعلت في الصفحة 219 من الكتاب المذكور فتيلَ عشق نابوكوف البطيء الصامت - شكرتني فيها على «اهتمامي» نيابة عن زوجها. الطباعة كانت باهتةً لكنّها صحيحةٌ مئة في المئة.

أعلم بماذا تفكّرون: يا لها من عائلة بغيضة! إنّهم حفنة من الفضوليّين المنشغلين بالتوافه، ينتقدون كلّ شيءٍ ويستحيل إرضاؤهم!

هذا صحيح، وهاكم الدليل الدامغ: مـرّةً، أوصيتُ على كعكة بالشوكولا للاحتفال بأعياد ميلاد أفراد فاديمان الآخرين المتقاربة. حالما دقّقتُ الإيصال اكتشفتُ أنّ الموظف قد سجّل ما أرغبُ بكتابته عليها كَـ Happy Birthday's فصحّحتُ الجملة على الفور لأنّني أعرف عائلتي! لن يعيروا انتباهاً لزينة الكعكة ولا للوردة الزهريّة المصنوعة من السكّر، بل سيصرخون معاً: هناك فاصلةٌ علويّة زائدة! لو لم أتدارك كارثة علامات الترقيم في آخر لحظة.

إن كنتم مُبْتَلين بوسواس التصحيح القسريّ - تعرفون أنفسكم! تصحيح الخطأ بالنسبة إليكم عملية انعكاسيّة كالعطاس تماماً، لا يمكن تجنّبها - فأنتم حتماً تفكّرون بطريقةٍ مختلفة: يا للعائلة الراقية التي تحبّ الخير للجميع! كم هم كرماء في هذا الزمن الذي لا يكترث فيه أحد بشيء، يتشاركون فطنتهم مع الأقلّ معرفة! لو كنتم تعيشون في عام 1631 فأجمل لحظاتكم هي عندما تقرؤون الوصيّة السابعة في الإنجيل الذي طُبع خصّيصاً للملك تشارلز الأوّل وجاء فيها «مارِس الزنا» لأنّ (لا)

سقطت من الطباعة، أو عندما تقرؤون سيرة بيڤرلي سيل الذاتيّة في عام 1976 قبل تصحيحها في طبعة لاحقة، الجملة *الافتتاحيّة* وحدها كافيةٌ لجعل يومكم لا ينسى: «عندما كان عمري ثلاث سنواتٍ واسمي ما يزال بيل ميريام سيلڤرمان، أدّيت أوّل مقطوعة آريا[4] في حياتي أمام العانة». الجزء الأفضل في *النيويوركر* سيكون بالنسبة لكم الأخبار التي تضاف حشواً لملء فراغات الصفحة. لا مقالٌ لماكفي[5] ولا قصّةٌ لجون أبدايك سترضيكم كما يفعل هذا المقطع من *ريتشموند تايمز ديسباتش*:

«في هذه الأثناء، ريتشارد پاركر باولز، شقيق أندرو زوج كاميلا السابق، قال إنّ كاميلا وافقت منذ البداية على زواج تشارلز بديانا، وظلّتْ جزّازة عشبه الكهربائيّة».[6]

جزّازة العشب الكهربائيّة خاصّتي، جورج، لا يفهم الإثارة التي تبعثها هذه الاكتشافات، ولا يعتبر ما أقوم به مساعدةً لطيفة عندما أمرّ صدفة أمام شاشة كمبيوتره وإذ بأصابعي تتحرّك تلقائيّاً كأنّ عفريتاً يحرّكها لإدخال حرف (ر) مفقود إلى (يحرج). ابنتنا ذات السنوات الستّ لا تتقن التهجئة بمستوًى يسمح لها بتصحيح الكلمات بعد، لكنّها بلا شكٍّ ورثت الطبع الميّال لاكتشاف الأخطاء. عندما كان عمرها سنتين ونصفاً قال لها جورج وهو يشير إلى علبة إطعام الطيور: «انظري سوزانا، تاوهي أحمر!»[7] فاعترضت على الفور: «كلاّ بابا، إنّه تاوهي أحمر الخاصرتين»... إنّها مسألة وقتٍ فقط حتّى تبدأ بإضافة أحرف (ر) المفقودة إلى نصوصه.

بعد عشائنا العائليّ، طلبت من أمّي أن تعيرني ظرف القصاصات

4- Aria أغنية يؤديها صوت منفرد مع أو دون مرافقة موسيقية غالباً في الأوبرا. م

5- John McPhee 1931- ، صحفي أميركي رُشّح لجائزة البوليتزر 4 مرّات وفاز بها في المرة الرابعة. م

6- يستبدل كاتب الخبر خطأ تعبير cutting Diana's grass (الذي يعني حرفيّاً تقصّ عشب ديانا بمعنى تحاول سرقة زوجها) بآلة جزّ العشب الكهربائيّة. م

7- Towhee طائر يعيش في أميركا عنقه وظهره أسودا اللون بينما خاصرتاه حمراوان.

التي جمعتْها من *فورت مايرز نيوزبرس*، ورتّبتُها على الطاولة في منزلي. كانت 394 قصاصة (من هي المرأة التي ستعدّها؟! ابنة المرأة التي تقصّها في المقام الأوّل بالطبع!!)، والأخطاء كالتالي:

56 مرّة عدم توافقٍ بين الفعل والفاعل، ثماني صفات لا تتبع الموصوف، ثلاث جمل شرطيّة خطأ، ثلاث مـرّاتٍ استعمال نفي مزدوج، 12 استعمال (إنّه) عوضاً عن (له)، ثلاث مرّات استعمال (له) عوضاً عن (إنّه)، ثلاث مرّات استعمال there (هناك) عوضاً عن their (لهم)، ثلاث مرّات استعمال (إنّهم) عوضاً عن (لهم)، ومرّة استعمال (لهم) عوضاً عن (إنّهم).

صيّادون أطلقوا النار على إيل، عشّاقٌ تبادلوا عهود الزواج، مجانين هربوا من المصحّات، بيانو أُصلِح، وتشارلز احتفل بالذكرى الخامسة والعشرين كأمير ويلز. «هناك ديموغرافيّة ضخمة في الخارج» علّق الناقد السينمائيّ في *النيوزبرس*. «تقدّر الفيلم الجيّد ولا يجب أن تؤخذ على محمل الغرانيت»[8]. حتّى قبل أن أصدم بالصخرة في آخر الفقرة تولّد لديّ انطباعٌ أنّني أقرأ لغةً هي حتماً ليست الإنجليزيّة! أقسمتُ أنّني لن أستهين بجملةٍ خبريّةٍ صحيحة مرّةً أخرى، وآخذها على محمل الغرانيت!

خطأ واحدٌ كافٍ، لذيذ، *لا يقاوَم*. أمّا ابتلاع 394 غلطة دفعة واحدة فقد سبّب لي عسر هضم.

محرّر أعمالي السابق جون بيثل يعترف بمشاركتي هوسي، ويقول إنّه غير *قادرٍ* على تجاهل غلطةٍ طباعيّةٍ تطفو ضمن مجاله البصريّ. يتذكّر أوّل مرّةٍ مارس فيها تصحيح الأخطاء اللغويّة في السابعة من عمره عندما رأى دكّاناً يُعلن عن «فاكهةٍ مصابةٍ بالسكّري»، لكنّه مؤخراً منع نفسه من تصحيح كلمةِ (خلّ) مكتوبة على لافتة محلّ بقالةٍ كـ VINAGER خشية أن يظنّه العابرون مخرّباً يشوّه المكان بالغرافيتي.

8- يستبدل النصّ taken for granted (تحصيلٌ حاصل) بـ taken for granite. م

عائلة بيثل، كفاديمان، تقدّم دليلاً قاطعاً على أنّ الهوس جينيّ. والد جون مهندسٌ معماريٌّ يصحّح التفاصيل المرئيّة، إن أزاح أحد الضيوف منفضة سجائر بمقدار ربع إنشٍ ينتبه فوراً ويعيدها إلى موضعها الدقيق مباشرة. أمّا سارة ابنة جون فقد ظهرت عندها الأعراض وهي صغيرةٌ جدّاً، عندما كانت تتوقّف خلال نزهاتهم العائليّة كي تنظّف الجداول من كلّ أوراق الشجر التي تسدّ مجراها. سارة الآن مدقّقة لغوية، مهنةٌ تقارنها بالمشي خلف فيلٍ في استعراض والتقاط ما يخلّفه على الطريق من فضلات. جائزتها الكبرى حتّى هذا التاريخ جملةٌ صادفتها في مخطوطٍ لناشرٍ من سان فرانسيسكو: «مهّدت نظرية آينشتاين عن النسبيّة الطريقَ لتطوّر نظريّة البيغ باند»[9]، ولا تزال تسمع أوتار تلك الأوركسترا الكونيّة تعزف في عقلها أحياناً.

اكتشاف الأخطاء وتصحيحها جزءٌ من تناذر أشمل يضمّ عدّة أعراض متداخلة، أحدها هو دقّة الملاحظة. عندما كان صديقي برايان ميللر، وهو أيضاً مدقّق لغويّ، صبيّاً كان معتاداً على الجلوس في الغابة ساعاتٍ بأكملها كلّ مرّة بانتظار أن يلتقط حركةً خفيّةً لحيوانٍ ما في البعيد. جون بيثل اليافع كان بطل لعبة *ما الخطأ في الصورة؟* مصحّحو الأخطاء بارعون في تمييز الشاذّ – الفراشة النادرة، القوقعة الثمينة – عن الأشياء العاديّة، إنّما على عكس هواة الجمع، نحن نتمنّى أن نتخلّص منه لا أن نراكمه.

منّا من يفضّل الفوضى بالطبع، مع ذلك نستمتع ببعض أعمال الترتيب كإزالة فتائل الخيطان من آلة تجفيف الغسيل، أو استخراج النحل الغارق من البركة. أثمن ممتلكات أبي سلّة مهملاتٍ نحاسيّةٌ ضخمةٌ، وهو في أسعد حالاته عندما تكون طافحةً بينما سطح مكتبه فارغ. من أولى الجمل التي نطقها أخي نصيحة سايكولوجيّةٌ ذكيّةٌ قدّمها له من كرسيّه العالي حين نزل إلى الطابق السفليّ بمزاجٍ عكرٍ ذات يوم: «ارمِ كلّ شيءٍ يا بابا».

9- استبدل The Big Bang (الانفجار الكونيّ العظيم) بـ The Big Band أي الفرقة الكبرى. م

للأسف، لا وجود لبرنامجٍ من اثنتي عشرة خطوةٍ لعلاجنا. علينا أن نتعايش مع دائنا، وربّما أن نستخلص منه بعض الفوائد للمجتمع أيضاً بأن نقدّم خدماتنا باكتشاف الأخطاء مجّاناً. لو كنّا نحن الفاديمان أو البيتل حاضرين عام 1986 في نيويورك عندما أخطأت شركة محاماةٍ هايت، غاردنر، بور، وهاڤنز بمكان الفاصلة العشريّة في رهن سفينةٍ لجنّبنا الزبون خسارة أكثر من 11 مليون دولار. ولو كنّا حاضرين عام 1962 عندما حذف أحد المبرمجين في وكالة ناسا شحطة من برنامج مسبار الفضاء *مارينر 1*، لتجنّبنا كارثة تحطّمه التي كلّفت دافعي الضرائب 7 مليون دولار عندما خرج عن مداره.

ولو كنّا موجودين العام الماضي في صالون الوشم تاتوشوب في كارلستاد، نيوجيرسي لكنّا أنقذنا دان أوكونور - وهو شابٌّ في الثانية والعشرين ومشجّع متحمّسٌ لفريق رگبي نوتردام[10] - من أن يحمل على ساعده الأيمن عبارة (حائك إيرلنديّ)[11] عوضاً عن مقاتلٍ إيرلنديّ.

قاضى أوكونور موظّف الصالون الذي حذف حرف T بغرامة مئتين وخمسين ألف دولار كتعويضٍ عن الضرر. آمل أنّه ربح الدعوى، فلا أتخيّل مصيراً أسوأ من أن يمضي شخصٌ ما حياته مع خطأ طباعيّ منقوشٍ على جسده، وكما سيوافقني مؤلّفو دليل برنامج الكمبيوتر العائد لأخي، من الصعب جدّاً... أن نُدخِل جزرةً.

10- الاسم الكامل للفريق هو Notre Dame Fighting Irish Football. م

11- حذف خبير الوشم حرف t من Fighting فتحوّلت من مقاتلٍ إلى Fighing ، فعل Figh في اللغة الإيرلندية = يحوك. م

حبرُ الأبديّة

وقعتْ عيناي عليه أوّل مرّةٍ منذ ثلاثةٍ وثلاثين عاماً. كان قلماً قديماً، جسمه الأزرق داكنٌ يبدو أميلَ للسواد في أغلب درجات الإضاءة، غطاؤه يتدرّج من اللون الفضيّ إلى الرماديّ وتزيّنه خطوط طولانيّة ناعمة لا تكاد ترى مع حلقةٍ تلتمع بعدّة ألوانٍ تخيّلتها جوهرةً نفيسة، أمّا مشبكه فعلى هيئة سهمٍ ذهبيّ. لتحبيره، توجّب عليّ فكُّ الإنش الأخير من الجسم، وغمس السِّنّ بالحبر، من ثمّ ضغط مضخّةٍ بلاستيكيّة شفّافة كانت تُعتبر ترفاً متقدّماً قياساً إلى قلمي السابق، الذي يصدر خزّانه الرخو أصواتاً وقحةً عندما أضغطه.

ذلك القلم كان هديّة من حبيبي في الصفّ الخامس جيفري داڤيسون، صبيٌّ أحمر الشعر يغطيه النمش بارعٌ بمسابقات التهجئة وكرة اليد: نموذجٌ لكلّ الأذكياء الرياضيّين الذين سأقع في غرامهم على مرّ السنين قبل أن يُتوّجوا بزوجي. راودني الشكّ أنّ جيفري سرقه من زوج أمّه، لكن لا يهمّ. لقد أصبح ملكي بفضل حبّ الصبيّ لي وبالحقّ الشرعيّ، فلا أحد كان سيقدّر مواصفاته وذكراه أكثر منّي. خصّصته لكتابة الشِّعر إلى أن دخلت إلى الجامعة – النثر كان تدنيساً له – من ثمّ استعملته لكتابة المسوّدة الأولى لكلّ نصّ خلال سنواتي الباكرة ككاتبةٍ. مثل كلبٍ لا بدّ أن يدور ثلاث مرّاتٍ حول نفسه قبل أن يربض لينام، كان لا بدّ لي كي أكتب الجملة الافتتاحيّة من أن أفتح غطاء دواة الحبر الصينيّ وأستنشق رائحة الصمغ وهباب الفحم

المخدِّرة، ثمّ أغمس السنّ وأضخّ الحبر بضغط المضخّة مرّةً، اثنتين، ثلاث، أربع، خمس مرات.

الملهماتُ متقلّباتٌ، العديد من المؤلّفين - وهم شاردون في الفراغ - نجوا من شلل الكتابة بأن عزوا المسؤوليّة الإبداعيّة إلى طلسم: تميمةٌ جالبةٌ للحظّ، نوعٌ من الورق، أو على الأغلبِ أداةٌ للكتابة. هل أكتب جيّداً؟ اشكروا قلمي. هل كتابتي رديئة؟ لا تلوموني. لوموا قلمي... بهذه الإزاحات تدافع المخيّلة القلقة عن نفسها. خلال إحدى فترات نضوب إبداعها، كتبتْ ڤيرجينيا وولف: «أنا أكتب بقلمٍ ضعيفٍ وهشّ»، خلال فترةٍ أخرى كتبتْ: «ماذا سأكتب بقلمٍ سنّه معطوبة؟».

غوته، رغم أنّه تتلمذ في أصول الخطّ الأنيق على يد معلّم لفنون الكتابة، أملى أعماله العظيمة على ناسخٍ. إزاحةُ عبء الكتابة عن نفسه عزّزت أكثر حاجتَه للتحكّم في طقوسِ التأليف: كان يصرّ أن تُقصّ ريشُ الكتابة بحيث لا تكون طويلة جدّاً ولا قصيرةً جدّاً، أن تُزال بقايا الأسلات عنها، ألّا يُجفّف الحبرُ الطازج بالرماد، بل بتعريض الأوراق لحرارة الموقد، وأن يتمّ كلّ ما سبق دون صوتٍ كي لا يتشتّت تركيزه.

رديارد كيبلنغ لم يكن قادراً على كتابة قصصٍ خياليّة بقلم رصاص. الحبر فقط يفي بالغرض وخصوصاً القاتم (كلّ تدرّجات «الأزرق-المسودّ» هي لعنةٌ لشيطاني). قلمه المفضّل الذي كتب به «*حكايات عاديّة*» في لاهور كان قلماً «ذا سنّ وايڤرلي له قاعدةٌ رقيقةٌ ثُمانيّة الأضلاع من العقيق» انكسر ذات يوم. كتب كيبلنغ بعده بأقلامٍ مختلفة، تُغمَس في الحبر كالريشة أو تُملأ كالقلم العاديّ أو تعمل بضغط الحبر يدويّاً كي يتدفّق للسنّ كلّما جفّت، لكنّه اعتبرها كلّها «موظّفين دون شخصيّة»، وأمضى بقيّة حياته متحسّراً على قلم وايڤرلي الفقيد.

أعرف ما عاناه كيبلنغ! فقدان قلمٍ هو مسألة جدّيّة. منذ عشر سنواتٍ ضاع قلمي فجأةً. أنا، كعاشقةٍ غيورٍ، لم أكن أحمله خارج المنزل أبداً. لذلك اعتقدتُ أنّه تدحرج إلى شقٍّ خفيٍّ في مكتبي متمرّداً ضدّ إقامته

الجبريّة. ألفَ مرّةٍ أردتُ أن أفكّك المكتب، ألف مرّةٍ تراجعتُ خشية ألّا أجد القلم فأضطرّ للاعتراف بخسارته للأبد. كنتُ مثيرةً للشفقةِ، أتردّد على المحلات التي تبيع أقلاماً مستعملةً وبيدي نموذجٌ قديمٌ من كتاباتي أشير إليه قائلة: «هذا هو عرض الخطّ الذي أريد» كأنّني أحملُ صورةً لحبيبٍ ميتٍ وأقول: جِدوا لي واحداً مثله بالضبط. في سياق بحثي علمتُ أنّ قلمي كان باركر 51 ويعود لسنة 1945 تقريباً.

في نهاية المطاف، عثرتُ على قلمٍ يطابقه في لونه وتاريخ صنعه أيضاً! لكن بعد أن حملتُ محدث النعمة هذا معي إلى البيت، صار يتأرجح عمداً بين الخربشة وبين تلطيخ الصفحة بالحبر، ولا يرضى أن ينساب بسهولةٍ كالحرير مثل سلفه حتّى بعد سلسلةٍ من الإصلاحات المكلفة. يا حسرتي! إنّه ليس حبّي السابق متقمّصاً قلماً آخر، بل شبيهٌ خسيس.

بلا شكّ ما زلتُ أكتب. لكن منذ ذلك التاريخ، عملية تركيب الكلمة الأولى، الجملة الأولى، والفقرة الأولى... صارت أشبه بالعمل وأبعد عن السحر.

عندما كان صديقي آدم في السادسة عشرة، اشترى لقاء عشرين دولاراً دفتر رسائل من القرن الثامن عشر يعود لتاجر من ڤيرجينيا سجّل عليه مراسلاته: تقارير عن أسعار التبغ، وطلبات لشراء دبس السكّر من جزر الهند الغربيّة، ورسائل إلى الأصدقاء الموالين[1] الذين فرّوا إلى نوڤا سكوتيا خلال حرب التحرير. بين الصفحات كانت هناك قصاصاتٌ قاسية مصفرّة ظنّها آدم في البداية قصاصات أظافر، لكنّه لاحظ بقايا ريش فأدرك أنّها أجزاء من ريشة كتابة: بقايا إوزّةٍ ماتت خلال حقبة الملك جورج الثالث.

كم كانت الكتابة بالريشة غيرَ عمليّةٍ لكن مذهلة. عدّة الكتابة في القرن الثامن عشر تألّفتْ من حاملٍ للريشة (غالباً استُخدمت الريشة الثانية أو الثالثة من الجناح الأيسر للطّائر، لأنّ تقعّرها ينحني للخارج عند

1- هم الموالون للحكم البريطانيّ في المستعمرات الأميركيّة خلال حرب الاستقلال. م

إمساكها باليد اليمنى)، وسكّين، ودواة، وعلبة بودرة تحتوي مسحوقاً لتجفيف الحبر، وعلبة رقاقاتٍ (فيها أقراصٌ من معجونٍ خاصّ لإغلاق وختم الرسائل). إنّها نصبٌ تذكاريٌّ بحدّ ذاتها لفعل الكتابة، لكن يمكن الاستعاضة عنها ببدائل مؤقّتة إن لم تكن في متناول اليد. في أحد الأيام كان السير والتر سكوت خارجاً للصّيد عندما لمعت في ذهنه فكرةٌ كان يحاول صياغتها طيلة الصباح. كي لا ينساها، أطلق النار على غراب، نتف ريشة، سنّ ذروتها، وغمسها في دم الغراب ثمّ اقتنص الجملة.

بالنسبة للذين يعتبرون الكتابة شكلاً من الرومانسيّة، قلم باركر 51 لا يضاهي ريشة غراب، لكنّه بالتأكيد سيهزم الأنواع الأخرى من أقلام الحبر السائلة والجافّة، خاصّة تلك التي لا يُعاد تحبيرها وتوحي بـ: «لا تتعلّقي بي كثيراً، أنا قلمٌ عابر». أقلام الرصاص لا بأس بها، لكنّني أفضل ديمومة الحبر. ما زالت بحوزتي أشعاري التي كتبتها بعمر العاشرة إضافة لكلّ ما شطبته منها، وهي دليلٌ أفصحُ على نماذج تفكيري المنسية.

ريتشارد سيلزر، الجرّاح وكاتب المقالات، يستعمل قلم حبرٍ ودواةً صينيّة مطلية يزيّن غطاءها تنينٌ برونزيّ. لإطعام الجنيّ الذي يسكنها على حدّ قوله، يعتمد وصفةً قديمةً لتحضير مزيجه الخاصّ من حبر هيغنز الأبديّ، النوعِ الذي استعمله عندما تعلّم الكتابة قبل ستّين عاماً. أبديّ!! على أيّ وسيطٍ آخر تنطبق هذه الصفة إلّا على الحبر؟!

شريط تحبير الآلة الكاتبة – ما لم تكن من النوع الذي يُصحّح الأخطاء ذاتيّاً، ولم يُستعمل سائل المحو الأبيض – قد يكون دائماً، لكنّني لن أصفه بالأبديّ. دمُ الأبديّة إلهيّ ينتمي إلى الحبر الصينيّ ودم الغراب لا إلى الآلات، لكنّني أقرّ باحتمال أن يرتبط الكاتب مع آلته الكاتبة –لا سيّما إن كانت يدويّة عتيقة – بعلاقةٍ محمومةٍ تشبه زواجي بقلمي فلا يخونها مع آلةٍ أخرى. أثناء عملي في مجلّة لايف، كانوا أحياناً يستعينون بكاتبٍ محنّك يدعى بول أونيل لكتابة قصص الجرائم. مرّةً لمحته واقفاً في أحد ممرّات المبنى الطويلة يلفّ شيئاً ما مفروداً على السجادة. تبيّن

أنه تزوّج آلة كاتبة عتيقة الطراز لدرجة أنّ أشرطة تحبيرها انقرضت، لذلك كلّما انقطع واحدٌ منها، يمسك إحدى نهايتيه ويفرده على السجادة كمن يلقي كرة بولنغ. من ثمّ، ينهب شريطاً جديداً من آلةٍ أخرى ويتحمّل مشقّة لفّه يدويّاً على البكرة الأصليّة.

أمّي تكنّ الإخلاص ذاته لآلتها الكاتبة من طراز أندروود، وهي مجموعة مهيبة من الروافع والقضبان والمسنّنات والمحاور، لها جرسٌ فضيّ صغيرٌ يطفو صوته عندما كان يرنّ معلناً انتهاء السطر في العديد من ذكريات طفولتي. والدتي الآن في الثمانين، قامت مرّةً واحدةً قبل أربعين عاماً بإصلاح وتنظيف تلك الآلة التي اقتناها والدها قبل أن تولد. في 1989، عندما انتقل والداي إلى منزلٍ آخر، بقيت الأندروود أشهراً مودعةً في مخزن بينما تدبّرت أمّي أمرها بواحدةٍ محمولةٍ من طراز هيرمز. سألتها عن شعورها عندما استعادتها: «كاللقاء مجدّداً مع حبيبٍ ضاع منذ زمنٍ طويل» أجابت. «حبيبٍ كنتِ متزوّجة منه طيلة حياتك لكنّك لم تدركي قوّة مشاعرك تجاهه إلى أن خسرته».

في هذه الأيّام أستعمل الكمبيوتر، وأنا أكتب هذه المقالة بواسطته الآن مع أنّه يجدر بي كتابتها بريشة غرابٍ مسنونةٍ باليد. الكمبيوتر، كما تبيّن لمعظم الكتّاب، تفوّق على كلّ ما عداه في مراجعة النصوص لأنّه يسمح بإعادة ترتيب الجمل بسهولةٍ فائقة، ويمكّنني من تمييز أخطاء خفيّةٍ في التراكيب حُجبتْ سابقاً عن مخيّلتي بالجهد والعنف اللذين تتطلّبهما طريقة القصّ واللزق القديمة. زر الحذف هو نعمة أيضاً لأيّ كاتب يكره الصفحة المليئة بالتشطيبات، لكنّه جعل برنامج معالج الكلمات الأقصر ديمومة بين جميع وسائل الكتابة الأخرى، فالجمل المحذوفة مصيرها النسيان (أنا أفضل إزاحتها إلى أسفل الشاشة، هكذا يدفعها النصّ المتنامي أمامه باستمرارٍ كأنّها كومة ثلجٍ تكبر أمام جرّافة).

فوجئتُ كم يعجبني كمبيوتري، لكنّني لن أحبّه مطلقاً. استعملتُ

عدّة نماذج وتبدو جميعها لي متماثلة، إن رأيتَ بكسلاً واحداً فكأنّك رأيتها كلّها.

كقارئة، أشعر غالباً بأنّني أستطيع تمييز لمسة معالج الكلمات في الكتب، خاصّة الطويلة. الكتّاب الذين لم تعد تعيقهم الحاجة إلى تبديل شرائط تحبير الآلة الكاتبة أو ملء قلم الحبر أو شحذ ريشة الكتابة، أصبحوا ميّالين للإسهاب. الرسائل المكتوبة بهذا البرنامج تثير شكّي فوراً لأنّها تبدو أشبه بالقوالب الجاهزة، أمّا العناوين المطبوعة فهي الأسوأ... كم هو مبهجٌ أن تفتح صندوق البريد وتجد رسالة من صديقٍ قديمٍ تميّز خطّه فوراً على الظرف كما لو أنّك تميّز وجهاً؟!

مؤخراً انتهيت من تأليف كتابٍ باشرتُ فيه في 7 آب 1991 (أتذكر التاريخ لأنّه عيد ميلادي)، وكتبتُ جملته الافتتاحيّة بالقلم. تتوازى السنون الفاصلة بين بدايته ونهايته – ليست مصادفة أنّ خطّي خلالها أصبح غير مقروءٍ تقريباً –مع انتقالي من استعمال القلم إلى معالج الكلمات. خطّطتُ لكتابة الصفحة الأخيرة بيدي، أوّلاً على سبيل الذكرى العاطفيّة، وثانياً لأنّني ظننتُ أن القلم سيهدّئ من تدفّق كلماتي ويجعلني أتروّى لإبراز النقاط الهامّة. عندما حلّ الصباح أخيراً بعد ليلةٍ صعبةٍ، وساعةٌ واحدةٌ لا غير تفصلني عن موعد التسليم، أدركتُ أنّه لا يمكن لعدّاء الماراثون التمهّل لشمّ أزهارٍ تزيّن آخر مئة ياردةٍ في مسار السباق... لم يعد بوسعي المماطلة باستعمال القلم أكثر. فات الأوان! قلمي القديم قد يكون مدفوناً في مكان ما في مكتبي، لكنّ شيطاني بالتأكيد لن يسكن كمبيوتر كومباك ديسك برو 4/ 25 موديل 120. لا بدّ أنّه فرّ من المكان أو أنّه – كما آمل– يعيش في داخلي!

شهيّة طيّبة

عندما كان عمر ابني ثمانية أشهرٍ ونصفٍ، كان يلتهم الأدب - أنا لا أمزح- فقد كان يقوم بمضغ أيّ كتابٍ يُقدّم له. جزءٌ من DNA هنري مُدمَجٌ للأبد في صفحات «*تصبح على خيرٍ أيها القمر*» المكرمشة، والزوايا الناقصة من الصفحتين 3 و 8 توحي أنّ جزءاً من «*تصبح على خيرٍ أيها القمر*» قد تماهى مع هنري للأبد. بالطبع لم يكن أوّل طفلٍ يُدلّل نفسه بتذوّق كتاب، فأحد أسباب ندرة الطبعات الأولى من «*أليس في بلاد العجائب*» عائدٌ إلى أنّ الكثير منها قد أُكِلَ حسب ما استنتجه تاجر كتب مدينة فيلادلفيا العظيم إيه. إس. دبل يو روزنباخ.

هنري ورفاقه آكلو الكلمات - من ضمنهم محرّرٌ في وول ستريت جورنال يمزّق وهو شارد الذهن لقيماتٍ من قاموس غرفة الأخبار يكوّرها إلى كراتٍ صغيرةٍ ويقذفها في فمه - لا يفعلون أكثر من أن يطبّقوا حرفيّاً التشابه المجازيّ بين الأكل والقراءة الذي يجعلنا نقول على سبيل المثال إنّنا نلتهم مقالاً، أو إنّنا عانينا صعوبة في هضم سيرةٍ ذاتيّةٍ مسهبة. عندما نلقّب شخصاً ما بأنّه دودة كتب، فنحن نربط بينه وبين يرقات حشراتٍ تنتمي أساساً إلى رتبة الثيسانورا Thysanura والسوكوبتيرا Psocoptera، يتألّف نظامها الغذائيّ كليّاً من الورق والصمغ.

«الكتبُ هي طعام» كتب الناقد الإنجليزيّ هولبروك جاكسون. «المكتبات هي أصناف لحوم تُقدّم بوصفات عديدة... نأكلها كبقيّة أنواع الأطعمة بدافع الحبّ أو الحاجة، لكن غالباً بسبب الحبّ».

تشارلز لامب ولي هَنت[1] وصفهما صديقٌ لهما بأنّهما يتذوّقان «مقاطع الشِّعر النادر بلذّة فائقةٍ كأنّها لقيماتٌ من فواكه غضّة ناضجة». غاليليو قارن *أورلاندو فوريوسو*[2] بحقل شمّام، كوفنتري باتمور[3] قارن شكسبير باللحم المشويّ، بينما قارن إدوارد فيتزجيرالد ثوسيديدِس[4] بجبنة البارميزان.

إن كانت الكتبُ طعاماً، فالكتب التي تتناول موضوع الطعام تمثّل قمّة النكهة الأدبيّة. تدرّج هنري، وعمره حالياً سنة ونصف، من أكل الصفحاتِ فعلياً إلى نَهمٍ أرقى وأكثر رمزيّة. فهو الآن عندما يرى صورةِ شيءٍ ما شهيّ يتظاهر أنّه ينتزعه من الصفحة ويزدرده، على الأقلّ يجرّب أشياء صالحة نظرياً للأكل: بطيخٌ أحمر، وقطرميز عسل، وكعكعة عيد ميلادٍ كبيرة. لكنه أثار قلقي مرّةً بمحاولة ابتلاع حفّارة أسنان ربّما لأنّها صفراء وتشبه الموزة. عندما تندرج الروايات لاحقاً في لائحة طعامه أتوقّع أنّه - كأمّه - لن يقيّم الشخصيات حسب لباسها أو مظهرها أو طريقة كلامها، بل حسب طعامها. في *آنا كارنينا* يُلخّص مشهد مطعم موسكو الفروقَ الأساسيّة بين شخصيتي أوبلونسكي وليفن: الأوّل يطلب ثلاث دزّيناتٍ من المحار، وشوربة خضار، وسمك الترس مع صلصة كثيفة، وطبق الديك بالطرخون، وسلطة فواكه. بينما يتوق الثاني لشوربة الملفوف والعصيدة.

لطالما فضّلتُ كيتس على ووردزورث دون أن أتمكن من تحديد السبب إلى أن قرأتُ أنّ ووردزورث كما وصفه أحد زواره «سيعيش

1- James Henry Leigh Hunt 1784-1859 شاعر وناقد وكاتب مقالات إنجليزيّ. م

2- Orlando Furioso قصيدة ملحميّة كتبها الشاعر الإيطاليّ أريوستو عام 1516 وكان لها أثر كبير على الثقافة لاحقاً. م

3- Coventry Patmore 1823-1896 شاعر وناقد إنجليزي، أشهر أعماله «الملاك في المنزل». م

4- Thucydides جنرال ومؤرّخ أثيني أرّخ للحرب البابيلونيّة بين إسبارطة وأثينا في القرن 5 ق.م. م

شهراً كاملاً على لحم العجل البارد، ثمّ شهراً آخر على لحم الخنزير المقدّد البارد» ، أمّا كيتس، فقد كتب مرّةً في رسالةٍ إلى صديقه تشارلز وينتورث ديلكه: «بالحديث عن المتعة، في هذه اللحظة أنا أكتب بيدٍ، وباليد الأخرى أمسك درّاقة ريحانيّة. يا إلهي كم هي لذيذة! وطريّة، وغنيّة باللبّ وبالعصارة، وتتلاشى في الفم... كلّ لحمها الشهيّ يذوب في بلعومي كأنّها طوّبت حبّةَ فراولة».

لم أقرأ أبداً جملاً بهذه الشهوانيّة! ستدلّكم أنّه عندما اجتمع كيتس وفاني براون فلا بدّ أنّ انفجاراً حسيّاً حصل بينهما، كذلك في مشهد الطعام الشهير في توم جونز، كانت شهيّة توم للسيّدة ووترز تعادل شهيّته لعشائه وفيه «ثلاثة باونداتٍ على الأقلّ من ذلك اللحم الذي كان في مضى جزءاً من ثورٍ، نالت الآن شرف أن تكون جزءاً من جسد السيّد جونز».

عندما أقرأ أحياناً عن الطعام، كلمةٌ واحدةٌ كفيلة بإطلاق تفاعلٍ متسلسلٍ من تداعي الذكريات. لا تلزم المصابَ بفتشيّة الأحذية رؤيةُ موضوع رغبته كي يرتجف من الإثارة، يكفيه فقط أن يلمح عبارة (حذاءٌ بلونين وكعبٍ منخفض قياس ستة ونصف). بالمثل، عندما أقرأ الكلمة الفرنسيّة Plein التي تعني «ممتلئ» تأخذني الذاكرة فوراً إلى عمر الخامسة عشرة، فبعد أن أكلتُ حصّة عملاقة من الدجاج بالطرخون قلتُ للمضيفين الباريسيّين إنّني Plein. لاحقاً تعلّمتُ أنّها صفةٌ مخصّصة فقط للنساء الحوامل وللأبقار المحتقنة الضروع. كلمة ترمجان Ptarmigan ترسلني رأساً إلى حملة استكشاف شاركت بها قبل عشر سنواتٍ في منطقة القطب الكنديّ، عندما قام عالمٌ خبيرٌ ببيولوجيا الدببة القطبيّة - بعد أن سئم الفاصولياء المعلّبة - باصطياد ستّة طيور ترمجان. نتفنا ريشها، وقليناها، وامتصصنا العظام بشراهةِ لاحمين متوحّشين... في تلك اللحظة أيقنتُ استحالة أن أصبح نباتيّة. أحياناً مجرّد تتالي حرفي

Pt يثير في أعماقي هبّة نوستالجيا من الشراهة وتأنيب الضمير، وقد أكون الوحيدة في العالم التي يسيل لعابها عندما تقرأ التسمّم التوميني Ptomaine poisoning[5].

ردّ فعلي تجاه الإشاراتِ الأدبيّة إلى الذوّاقة هو غالباً الشعور بحاجة ملحّة إلى غزو الثلاجة، وإن تصادف أنّني أقرأ في السرير فغنائمي ستكون سبباً في إشعال الصراعات الزوجيّة. لو كنتُ قد تزوّجتُ تشارلز لامب، الذي أخبر صديقه كوليردج[6] أنّه مولعٌ تحديداً بالكتب التي تحتوي آثار المافن بالزبدة، لما كانت هناك مشكلة. لكنّني تزوّجت بدلاً عنه جورج، الذي يعتبر الفتات على الوسادة خاصّة بعد أن نفرشي أسناننا، علامة من علامات الفساد الأخلاقيّ الخطير. (قدري أن أقع بحبّ رجالٍ من طينة ليڤن لا أوبلونسكي. مرّةً سألتُ رفيقي في أيام الجامعة عن طبقه المفضّل. استغرق وقتاً طويلاً في التفكير بينما كنتُ أقلّب في رأسي مزايا الكريم بروليه وجبنة برْي المائعة. «حسناً» قال أخيراً «أحبّ الخبز»). كيف لامرأةٍ في كامل قواها العقليّة ألّا تأخذ معها سناكاً صغيراً إلى سرير الزوجيّة بعد أن تقرأ وصف إم. أف. كيه. فيشَر للبيض المخفوق المقليّ في كتابه «*كيف تطهو ذئباً*»، أو أنشودة همنغواي عن السجق وسلطة البطاطا في «*وليمة متنقّلة*»، أو ما اخترعه توماس وولف من المكونات التي وجدها في ثلاجة جويل بيرس في «*عن الزمن والنهر*»؟!

ذكّرتني صديقتي سوزان ماكارثي التي شاركت بتأليف كتاب «*عندما تبكي الفيلة*»، أنّ القراءة عن الطعام قد تجعل المرء أحياناً يهرب راكضاً من المطبخ. ذكرت فقرةً قرَأتْها عن الحوت القاتل الذي يتغذّى على الحوت الأحدب «إنّه يقشّر الحوت الأحدب بأسنانه تقشيراً» وفكّرتْ بإلصاق المقطع على باب ثلّاجتها كمثبّطٍ للشهيّة. قد أفعل ذلك بعبارةٍ

5- مصطلح لم يعد مستعملاً للتسمم الغذائيّ الناجم عن وجود الجراثيم والڤيفانات في الأطعمة. م

6- Samuel Coleridge Taylor 1772-1834 شاعر وناقد وفيلسوف ولاهوتي إنجليزي، أسّس الحركة الرومانسية في إنجلترة مع ويليام ووردزورث. م

من «*دَيْنٍ للمتعة*» لجون لانشستر يصف فيها أوّل وجبةٍ تناولها صبيٌّ في المدرسة الداخليّة: «حساءٌ فيه قطعٌ صغيرةٌ من غضاريف مجهولة المصدر تطفو بلا خجلٍ في صلصةٍ بلون الوحل تذكّر حرارتها وقوامها بالمخاط».

سنترك أنا وسوزان هذه المقاطع حيث تنتمي: رفّ الكتب لا باب الثلّاجة. ففي أعماقنا، كلتانا أحكم من أن ندمّر الجوع البهيّ الذي تحرّضه الكلمة المطبوعة. أخبرني ناقد الفنون إريك غيبسون مرّةً أنّ إحدى أكثر التجارب التي سبّبت له الإحباط هي قراءة وصف عصيدة الدجاج والسجق في *لحظة حرب / ذكريات لوري لي عن الحرب الأهليّة الإسبانيّة* بينما كان في مترو واشنطن على بعد نصف ساعةٍ من مطبخه.

ذلك المقطع تحديداً يثير مشاعر جيّاشة لأنّ الجنود الذين التهموا العصيدة كانوا يتضوّرون جوعاً، فأفضل الكتابات عن الطعام لا تترافق مع التخمة الفاجرة، بل مع الجوع. هيمنغواي كان فعليّاً يعاني من المجاعة عندما أكل سلطة البطاطا، توم جونز صام 24 ساعة تمهيداً للاستمتاع بالباوندات الثلاثة من اللحم المشوي قبل أن يستمتع بالسيّدة ووترز، وكوليردج عندما كان طالباً في كرايست هوسبيتال حيث الطعام شبيه بحساء المخاط في مدرسة جون لانشستر، كان ينسحب إلى زاوية مشمسةٍ ويحلم بكعكة الخوخ. هل أخذ معه كتاب «*الطبخ الملكيّ والبرجوازيّ*»؟ بالطبع لا. بكلّ حكمةٍ اختار «*روبنسون كروزو*»، أحد أفخمِ كتب الجوع في التاريخ.

في الواقع، أدب الطعام المفضّل لديّ لا يصف طعاماً حقيقيّاً، بل وجباتٍ خياليّة، أحلام يقظةٍ شرهة يحلم بها أناسٌ بعيدون مئات الأميال عن أقرب غرفة مؤونة. حوليّات الاستكشافات القطبيّة تزخر بقوائم الطعام الافتراضيّة تلك. في حملة أدولفوس غرييلي العلميّة المنكوبة

إلى جزيرة إيلزمير[7] عام 1883، دوّن الملازم جايمس. ب. لوكوود قائمةً بالأطباق التي يشتاق إليها: ديك روميٌّ محشوّ بالمحار، بسكويت بوستون بايلوت، مافن بالشوفان، فريتَر الذرة. «مضغتُ ساق ثعلب نيّئة هذا المساء» كتب في يوميّاته. «إنّها عبارةٌ عن عظم وغضاريف». كتب بعدها «فطيرة البرتقال وجوز الهند». في حملة إرنست شاكلِتون إلى القطب الجنوبيّ 1914-1917، أجرى د. جايمس ماكلروي استبياناً للرجال الاثنين والعشرين العالقين على جزيرة إيلِفانت آيلاند، سألهم فيه ماذا سيختار كلّ واحدٍ منهم لو سُمح له بطبقٍ واحدٍ فقط. فاق عدد الذين يشتهون الحلويّات أولئك الذين يشتهون المالح أو الحارّ. هاكم عينة:

كلارك	زلابية ديفونشاير مع الكريمة
جايمس	بودنغ بالقطْر
ماكلروي	بودنغ بالمربى مع كريمة ديفونشاير
ريكنسون	تورتة التفاح وتوت العليق
وايلد	بودنغ التفاح والكريمة
هاسي	عصيدة، سكّر، وكريمة
غرين	زلابية بالتفاح
غرينستريت	بودنغ الكريسماس
كير	عجين وقطر
ماكلِن	بيض مخفوق مقليّ على قطعة توست
باكويل	خنزير مشوي مع فاصولياء
تشيثام	خنزير، صلصة التفاح، بطاطا ولفت

كفردٍ من مجتمع متحضّر، المرّات التي اقتربتُ فيها من قائمة الملذّات تلك كانت خلال الحمل، حيث من المسموح أن يدقّ جرس

7- Ellesmere Island جزيرة تقع في الأرخبيل القطبي الكندي. م

الشراهة بحريّةٍ وألّا يُقاوَم. ذات ليلة وأنا حامل بهنري، كنت مستلقية في السرير وأفكّر لسببٍ ما «بجزيرة *الكنز*». أدركتُ أنّني من كلّ الكتاب لا أتذكّر حرفيّاً سوى جملةٍ واحدة قالها بن غَن الذي كان محتجزاً على الجزيرة ثلاث سنواتٍ لجيم هوكنز: «حلمتُ خلال ليالٍ كثيرة وطويلة بالجبنة المحمّصة غالباً». ردّدتُ آخر كلمتين مراراً وتكراراً كأنّها مانترا: محمّصة غالباً، محمّصة غالباً، محمّصة غالباً... ووجدتُ نفسي أندفع نحو المطبخ في شبه غيبوبة كأنّني أسير في نومي. فتحت الثلّاجة، عثرتُ في أحد أدراجها على قطعةٍ من جبنة الشدر. رميتها في مقلاة التفلون، رفعتُ الحرارة، وهرستها بملعقة كبيرة. لا يُعدّ ذلك طهواً إلّا إن كنتم تعتبرون قيام إنسان نياندرثال بشيّ فخذ الماموث على النار طهواً أيضاً. عندما تحوّلت الجبنة إلى كتلةٍ مائعةٍ التهمتها من المقلاة مباشرة. هل كانت شهيّة؟ لا أدري. فقد ابتلعتها بسرعة.

حتّى الآن، لا أعرف إن كانت تلك التجربة التي مرّ بها ابني في رحمي - والتي سبّبت لي آلاماً فظيعة في معدتي - مسؤولة عن أبرز سمتين في شخصيّته: حبّ الكتب، وكره الجبنة.

لا جديد تحت الشمس[1]

في حفل عشاءٍ أحضر فيه كلّ ضيفٍ طبقاً، جلب المحرّر وخبير البايسبول دان أوكرِنْت، وهو أيضاً طاهٍ ممتاز[2]، لحم الخنزير المتبّل بالفستق والزبيب والثوم. محرّرة كتب الطبخ جوديث جونز التي كانت مدعوّةً أيضاً أعجبها الطبق لدرجة أنّها طلبت الوصفة من دان، فأعطاها إيّاها حرفيّاً من كتاب لجايمس بيرد. (اعتقدتُ أنّها تريد *تحضيرها*، تبيّن لاحقاً أنها تريد *نشرها*). فقد ظهرت تلك الوصفة بعد عدّة سنوات، على الصفحة 224 من كتاب *الطعام الأميركيّ* الذي أعدّه إيثانز جونز زوج جوديث تحت اسم: «لحم الخنزير المحشوّ الطازج على طريقة دان أوكرنت».

عندما لمح دان فيما بعد جايمس بيرد في حفل كوكتيل استجمع

1- سفر الجامعة 9:1 «ما كان فهو ما يكون، والذي صُنع فهو الذي يُصنع... فليس تحت الشمس جديد». قارن جان دو لابروير في الصفات1688:«جئنا متأخّرين كي نقول أيّ شيءٍ لم يقل من قبل». لابروير سرق هذا السطر غالباً من «تشريح الميلانخوليا» لروبرت بورتون 1621: «لا نستطيع قول أيّ شيءٍ إلّا ما قد قيل». بورتون على الأغلب سرق جملته من مسرحيّة «الخصيان» لتيرَنس 161 ق.م: «لا يقال شيءٌ لم يسبق أن قيل من قبل». سرقتُ فكرة مقارنة الأسطر الأربعة من هامش في «اقتباسات بارتليت الشائعة». فاديمان

2- في الواقع لم أتذوّق أيّ طبقٍ أعدّه دان أوكرنت، لكنّ صديقتي كاثي هولوب دُعيت مرّةً إلى العشاء في بيته عام 1994 وامتدحت طبق خاصرة الخنزير الذي أعدّه. فيما بعد علمتُ أنّ زوجته بيكي هي من حضّرت الطبق، لكن بأيّ حالٍ أشخاصٌ عديدون أكّدوا لي أنّ دان قد يكون من أعدّه حقّاً. فاديمان

شجاعته لأقصى درجة[3] واعتذر منه بصدق. «آه لا بأس» قال بيرد. «أنا سرقتُ الوصفة من كتاب آخر»[4].

في العالم الآنيّ لكتب الطبخ لا وجود على ما يبدو لمفهوم السرقة الأدبيّة. أضفْ غصن إكليل الجبل فتصبح الوصفة من اختراعك[5]. في الأدب - هكذا هو الاعتقاد الشائع -القواعد أقلّ تسامحاً. إن كنت تكره علامات الاقتباس، إن «نسيتَ» أنّ المقطع الفصيح الذي نسخته في مقالتك ألّفه فلوبير، إن أوهمتَ نفسكَ أنّ بعض المحسّنات اللفظيّة تنقل مُلكيّة النصّ لك، فأنتَ كما وصفك بنجامين دزرائيلي في جملته الشهيرة الأقدس[6]: «لصٌّ تسرقُ المجهود الفكريّ للآخرين»[7].

كغيري من الكتّاب، سحرني هذا الانقلاب الجذريّ[8] الذي تتحوّل بواسطته مجموعة من الكلمات، وهي مشاعٌ عندما تكون مبعثرةً في قاموس، إلى أصلٍ قابلٍ للسرقة. نيل باورز، شاعر تعرّض إنتاجه الأدبيّ مراراً للسطو من قِبل معلّم مدرسةٍ عاطلٍ عن العمل اسمه دايڤيد جونز، كتبَ مرّة: «تأسرني الطبيعة غير الملموسة للغة، وأتساءل كيف يمكن لأيّ

3- screwed his courage to the sticking place من مسرحية «ماكبث»(1606) 1.7.59. فاديمان

4- سرقتُ الطرفة من دان أوكرنت في 31 تشرين الأول 1996. فكرة استخدامها في الفقرة الأولى من هذه المقالة سرقتها في المقام الأوّل من زوجي جورج، الذي استوحاها في 11 تشرين الثاني 1996 عندما كان يملأ علبة تابروير ببقايا السباغيتي. وصفة السباغيتي مأخوذة من كتاب «متعة الطبخ» 1972 لإيرما.إس. رومبور وماريون رومبور بيكر، مع تعديلات عليها من قبل والدة جورج. فاديمان

5- سرقت هذه الجملة من دان أوكرنت. بأيّ حال جعلتها ملكي بأن استبدلت (ملعقة) بـ (غصن). فاديمان

6- أشعياء 65:5: لأنّي أقدس منك. فاديمان

7- لقد سرقت عبارة دزرائيلي من أفكار توماس مالون «كلمات مسروقة» 1989. كتب كلّ من مالون وألكساندر ليندي «الأصالة والانتحال الأدبي» 1952 أنّ موقف دزرائيلي كان سيبدو أصدق لو أنّه نفسه لم يسرق خطبة التأبين التي ألقاها في جنازة دوق ويلنغتون من تأبين لويس أدولف ثييرز للجنرال سانت- سير. فاديمان

8- sea-change من مسرحية «العاصفة» لشكسبير(1611-12) 1.2.394.فاديمان

شخصٍ أن يمتلك كلماتٍ. ما الذي سُلبَ منّي على وجه التحديد؟»[9] بمعنى آخر، بعد أن تُسرَق كلماتك - عكس جهاز الڤيديو- فهي ما تزال ملكاً لك.

أم لا؟

باورز يقول لا. أو على الأقل ليس بالطريقة ذاتها. فكما علّق بغضبٍ مُبرَّر[10]: «من يسرق الكلمات يسرق الأنفاس والنبض والوعي»[11]. حتماً شعر بالغيظ عندما قال له شاعرٌ آخر إنّ السارق قام عملياً بتحسين القصائد عندما غيّر فواصل الأسطر، وكأنّ السرقة الأدبيّة نوعٌ من التنقيح لا غير[12].

ينطلق لصوص الأدب من قناعة مشتركةٍ سائدة هي أنّك لو طوّرت النصّ الأصليّ، فعبقريّتك ستنجيك من العقاب المفروض على قائمة الناس العاديّين[13]. ڤرجيل، المشهور بميله للسرقة، شوهد مرّةً يتفحّص مجلّداً لكوينتوس إنْيوس[14]. عندما سُئل وأصابع الاتّهام موجّهة إليه، ماذا يفعل، ردّ: «أنتزع اللآلئ من إنيوس، يا كومة الروث»[15]. ربّما برّرت

9- نيل باورز Neal Bowers ، «خسارة الكلمات» من ذي أميركان سكولار خريف 1994، وهو لا يسمّي دايڤيد جونز في هذا المقال، بل يشير إليه بلقب (مُنتحلي) وما صعقني هو صدى الحميمية والتملّك الغريب في هذا اللقب كأنّه يقول سكرتيري أو طبيب أقدامي. جونز يُذكر بالاسم لاحقاً في كتاب باورز «كلمات للآخذ» 1997. فاديمان

10- من «الدافع للمجاز» 1947 لوالاس ستيڤنز، السطر 17. أعتقد، رغم أنّني لست واثقة، أنّ ستيفنز كان يتحدّث عن مزاج السرقة عموماً وليس عن البشر. لكن إحدى الصفات المؤاتية لسرقة كلمات الآخرين هو أنّك غير مضطر للتقيّد بمعناها الأصلي. فاديمان

11- باورز «خسارة الكلمات». فاديمان

12- المصدر نفسه. فاديمان

13- الملك هنري IV الجزء 1 (1596-97). 3.1.43. فاديمان

14- Quintus Ennius 239-169 ق.م يعتبر أبا الشعر الروماني. م

15- لقد انتزعتُ هذه اللؤلؤة من ليندي، وطوّرتها بإضافة «ميله للسرقة» التي وجدتها في ثيسوروس لروجيه تحت بند«السرقة». فاديمان

الأجيال لڤرجيل سرقاته، لأنّ الجميع يتذكّره بعد مرور ألفي عام بينما إنيوس المسكين قد طواه روث النسيان[16].

«الشاعر» الذي سرق أعمال باورز كان مدّعياً، الحل الوحيد بالنسبة له كي ينشر باسمه هو السطو على أعمال الآخرين. لكنّ ڤرجيل بكلّ تأكيد لم يكن مضطرّاً أن ينتحل أعمال إنيوس، ولا بايساندر ولا أبولونيوس[17]. ولا كان شكسبير بحاجة أن يضمّن «*أنطونيو وكليوباترا*» عدّة خطاباتٍ من بلوتارك، أو أن يقتبس 4144 سطراً من أصل 6033 في الأجزاء 1،2،3 من الملك هنري السادس، إمّا حرفيّاً أو بين قوسين من مؤلّفين آخرين[18].

لم يكن ملتون محتاجاً أن ينتحل من ماسينيوس[19]، ولا ستيرن من بورتون[20]، ولا بو من بنجامين موريل[21]. ولا كان كوليرِدج مضطرّاً أن ينسخ مقاطع ضخمة من شليغل وشيلنغ في عمله «*بيوغرافيا ليتراريا*»[22]، سرقةٌ كشفها بعد موته توماس دو كوينسي الذي انتحل هو نفسه أعمال غيره بمعدّل عشرين ضعفاً مقارنةً مع كوليردج[23].

16- ليندي قال شيئاً مشابهاً عن شكسبير والشعراء الذين سرق منهم. فاديمان

17- الاقتباس من ليندي. فاديمان

18- اقتبست هذه الأمثلة من ليندي لأنّني احتجت إليها. العملية الحسابية وعدّ الأسطر قام بهما العالم البريطاني إدموند مالون في القرن الثامن عشر. فاديمان

19- استمدّ ليندي برهانه من ڤولتير. فاديمان

20- الاقتباس من توماس مالون ومن ليندي. كلاهما أوردا أن من بين ما سرقه ستيرن من بورتون مقطع يستنكر السرقة الأدبيّة استنكاراً صارخاً. استناداً إلى مالون فستيرن سرق من نفسه أيضاً عندما عدّل عدّة رسائل كتبها في الأصل لزوجته ثمّ أرسلها لعشيقته بعد عدة سنوات. فاديمان

21- بيتر شو «السرقة الأدبية» من ذي أميركان سكولار صيف 1992. كشف شو أنّ بو أدان الانتحال الأدبيّ بأنّه ادّعاء مقرف واتّهم زوراً كتّاباً آخرين بارتكابه. فاديمان

22- الاقتباس من مالون ومن شو، كلاهما استشهدا بدراسة نورمان فرومان «كوليريدج: الملاك المحطّم» 1971 (عنوان فرومان مأخوذ من رسالة تشارلز لامب عام 1816 إلى ويليام ووردزورث). فاديمان

23- والتر جاكسون بايت «كوليريدج» 1973 التي استشهد بها مالون. فاديمان

بعد التفكير مليّاً أنّ معظم الذين سرقوا أعمال الآخرين لم يكونوا بحاجةٍ إلى ذلك - وأنّهم ينتحلون مراراً وتكراراً بأسلوبٍ واضحٍ جدّاً كأنّهم يتعمّدون أن يُكشَفوا - قلتُ لزوجي في الشهر الماضي[24] إنّ الانتحال الأدبيّ أقربُ إلى وسواس السرقة القهريّ من بين أنماط هوس السرقة الأخرى. لسوء الحظّ، اكتشفتُ لاحقاً أنّ أربعة كتّاب آخرين على الأقلّ قد سبقوني إلى هذا الاستنتاج العبقريّ[25]. عندما قرأتُ «هوس السرقة» في «*الأصالة والانتحال الأدبيّ*» لألكساندر ليندي تولّد عندي لجزء من الثانية شعورٌ أنّ ليندي سرق *فكرتي*، رغم أنّ كتابه صدر قبل ولادتي بعام[26].

بأيّ حال، كتب ليندي أنّ المهووس بالسرقة الأدبيّة *مُجبَّرٌ* على هذا الفعل. من الواضح - على سبيل المثال- أنّ السيناتور جو بايدن (أو الكتّاب الخفيّون وراءه) الذي يستعير أجزاءً من خطاباته من نيل كينوك، وروبرت كينيدي، وهوبرت هامفري من بين آخرين، *لا* يقدر أن يمتنع عن الانتحال. حتى اعتذاره عن سرقاته الأدبيّة سرقه من «*عناقيد الغضب* لشتاينبك»[27].

24- لا أستطيع تحديد التاريخ بدقّة، لكنه يوم خميسٍ بالتأكيد لأنّنا كنّا نفرغ جلّاية الصحون قبل مشاهدة ER ، أورد جورج هنا كشاهدٍ لأثبتَ أنّني بالفعل ظننتُ نفسي أوّل من توصّلتْ إلى هذا الاستنتاج. فاديمان

25- ألكساندر ليندي، بيتر شو، K.R.st Onge ، وتوماس مالون. فاديمان

26- قارن روبرت ميرتون (الانتحال الأدبي الاستباقيّ يحصل عندما يسرق أحدهم فكرتكَ الأصليّة وينشرها قبل أن تولد بمئة عام). ليس بمقدوري تقديم توثيق لأنّ مصدري هو بطاقة مصفرّة أعطاني إيّاها أخي في كابتيفا، فلوريدا في تشرين الثاني 1996. فاديمان

27- كلّ ما أوردته عن بايدن اقتبسته من مالون. من أمثلة السرقات الأدبية المتداخلة الأخرى التي أورَدَها، وصفُ جايكوب إبشتاين لشخصيّة صلعاء سرقه من مقطعٍ لمارتن آمِس، سرقه بدوره من ديكنز. ذكر مالون أيضاً أنّ جامعة أوريغون انتحلتْ مقطعاً عن السرقات الأدبيّة أوردته في كتاب الطالب من مقطعٍ عن الموضوع ذاته يرد في دليل المدرّس لجامعة ستانفورد. فاديمان

كلّما استفضتُ في القراءة عن الانتحال الأدبيّ تنامت قناعتي أنّ الأدب عبارةٌ عن سلّة مهملاتٍ كبيرةٍ واحدة[28]. سؤال الأربعة والستّين دولاراً[29] هو: ما مقدار فظاعة ذلك؟ قبل عصر الرومانسيّة، حين أصبحت أصالة النتاج الأدبيّ هي الهدف الأسمى[30]، كان انتحال أعمال الغير شائعاً لكنّ الوسط الأدبيّ تسامح معه أكثر ممّا هو الحال الآن[31]. فيلدِنغ مثلاً، رغم إيمانه أنّ السرقة من زملائه فعلٌ لاأخلاقيّ كتبَ: «يمكن اعتبار الأقدمين أغنياء، لذلك كلّ من يمتلك أصغر خيمةٍ في بارناسوس لديه حقٌّ مشروعٌ بإثراء موهبته»[32]. حتّى في يومنا هذا، غالباً ما يقال لضحايا السرقة الأدبيّة، بمن فيهم باورز[33] إنّ بوسعهم كتابة قصيدة أخرى، أو إن سرقة أعمالهم هي أكثر المجاملات صدقاً[34]. لا أتّفق مع هذه المواقف المتسامحة، لأنّني أعرف من تجربة عائلتي كم أنّ السرقة الأدبيّة مؤلمة. في عام 1988 وقع بين يديّ مقالٌ *للنيويورك تايمز*[35] يتّهم جون هيرسي بنسخ فقراتٍ كاملة من سيرة جايمس آجي الذاتيّة التي كتبها لورنس بيرغرين، واستخدامها في مقالةٍ ظهرت في *النيويوركر* عن الموضوع نفسه. هيرسي أدخل بضعة تعديلاتٍ، لكنّ بيرغرين ظهر في كلّ جملة. عندما قرأتُ المقال توقّعتُ ما جرى، فهيرسي سرق كتابات أمّي ذات مرّة.

28- قارن ألكساندر بوب «ثنائيّات عن الفطنة» 1776 البيت التالي: الفطنة اليوم تُمتَدح بانتحال فطنة الآخرين / كما يعيش امرؤ على فضلات آخر. فاديمان

29- مسابقة راديو بدأ بثّها عام 1941. العبارة اقترحها جورج في 14 تشرين الثاني 1996 وهو يقوم بتمارين للظهر في غرفة جلوسنا. فاديمان

30- من De Officiis لشيشرون 44 ق. م. (1.2). فاديمان

31- اقتبست هذه الفكرة من شو ومن هارولد أودِن وايت «الانتحال الأدبي والتقليد خلال عصر النهضة الإنجليزيّ» 1965. فاديمان

32- فيلدنغ، توم جونز 1749. الجزء 12، الفصل الأول. فاديمان

33- الاقتباس من باورز. فاديمان

34- تشارلز كايلب كولتون «لاكون» (1820-22). فاديمان

35- ويليام. إتش. هونان «هيرسي يعتذر إلى كاتب حول مقال عن آجي». النيويورك تايمز 22 تموز 1988. فاديمان

حصل ذلك قبل أكثر من أربعين عاماً، عندما كانت أمّي وزوجها الأوّل مِلفيل جاكوبي مراسلَين *للتايم* في الشرق الأقصى خلال الحرب العالميّة الثانية. بعد أن احتلّ اليابانيون مانيلا في كانون الثاني 1942، أمضيا ثلاثة أشهر مع فرقة الجنرال دوغلاس ماك آرثر في كوريجيدور وباتان قبل أن يفرّا إلى أستراليا، حيث مات مِلفيل إثر حادث في قاعدةٍ جويّة أميركيّة.

خلال تلك الأشهر الثلاثة، أرسلت أمّي وزوجها إلى *التايم* عدّة تقارير صحفيّة خطّطا أن تكون نواةً لكتاب ينشرانه لاحقاً. إلّا أنّ تقاريرهما تلك، ودون إذنٍ منهما، أصبحت الأساس الحرفيّ لما يقارب نصف كتاب هيرسي: «*رجال في باتان*»، والذي حقّق أفضل المبيعات.

لا بدّ أن ضمير هيرسي قد عذّبه، لأنّه رتّب أن تدفع *التايم* مبلغ 450 دولاراً لأمّي وملفيل، وقام - وهذا أغرب ما في الموضوع ولم أصدّق حتّى قرأته لي أمّي عبر الهاتف[36] - *بإهداء* كتابه إلى (ملفيل جاكوبي وزوجته آنالي) وصحفيّيَن اثنين آخرَين «إلى حدّ ما كي لا أُتّهَم بسرقة كبرى»[37].

ما إن قرأتُ مقال *التايمز* حتّى اتّصلتُ بلاري بيرغرين - كنّا زميلين في الجامعة- وأخبرته حكاية «*رجال في باتان*». ردّ أنّ أناساً عديدين، بمن فيهم بروفيسور متقاعد من جامعة شيكاغو- اتّصلوا يبلغونه أنّ هيرسي سرق كلماتهم أيضاً على مرّ السنين[38].

اتضح أنّ هيرسي، الذي طالما اعتبره بيرغرين «صوتَ الضمير»، مصابٌ بكلّ أعراض وسواس السرقة الأدبيّة: ينتحل كتابات غيره باستمرار، يترك أدلّة صارخة، وليس بحاجةٍ للسرقة لأنّه موهوبٌ موهبة فذّة.

قالت والدتي: أعتقد أنّ هيرسي دمّره أسلوب مؤسسة التايم بالكتابة

36- آنالي جاكوبي فاديمان، في حوار مع الكاتبة بتاريخ 4 تشرين الثاني 1996. فاديمان

37- جون هيرسي، «رجال في باتان» 1942. فاديمان

38- لورنس بيرغرين، في حوار مع الكاتبة في صيف 1988، وكان لنا حديث آخر في 5 تشرين الثاني 1996. فاديمان

من تقارير المراسلين. لقد اعتاد تمرير كلمات الآخرين على آلته الكاتبة وتوقيعها باسمه، لدرجة أنّه ظنّ عالم الكتابة بأسره مجرّد مادّةٍ خام».

على الأقلّ، كلمات بيرغرين المسروقة نُشرتْ حاملة اسمه. أمّي لم تحظَ بمثل هذه الترضية. المرّة الوحيدة التي شاهدت فيها تقاريرها مطبوعة كانت بين دفّتي كتاب يحمل عنوانه اسم جون هيرسي، لكنّه مكتوب بكلماتها.

رغم أنّ هيرسي قد مات، ولم يعد أحدٌ خارج نطاق عائلتنا يتذكّر ما حصل، لكن لا يمكن لأيّ شخصٍ أن يأخذ ذلك من أمّي[39].

39- آيرا غريشوين «لا يستطيعون أخذ ذلك منّي» من هل نرقص؟ 1937. فاديمان

بالطبع، سأقرأ الكاتالوج

على غلاف كاتالوج نوردستروم صادرٍ حديثاً - ولا تسألوني لماذا - هناك صورةٌ فوتوغرافية لتيس يقف على كيس خيشٍ في سيّارة بيك- آب ويأكل قرنفلة حمراء انتزعها لتوّه من حوض زهورٍ بلاستيكيّ أخضر. يبدو التيس سعيداً بوجبته، وبريقُ نظرةٍ سوف - آكل- أيّ- شيءٍ في عينيه يوحي أنّه لو لم يتوافر القرنفل، سيرضى بأكل كيس الخيش، أو حوض الزهور، أو حتّى البيك- آب.

أعرف بريق تلك النظرة تماماً، لأنّها تماثل نظرتي نحو القراءة. أفضّل أن أقرأ كتاباً بلا شكّ، لكنّني في حال الضرورة سأرضى بقراءة مجموعة تعليمات ووتر- بيك[1]. أمضيتُ ليالي عديدة وحيدةً في موتيلات بلدات صغيرة، لا شيء يؤنسني إلّا دليل الصفحات الصفراء. وذات مرّة، منذ زمنٍ طويل، قهرتُ أرقاً عنيداً بقراءة المادة المكتوبة الوحيدة في شقّتي التي لم أكن قد قرأتها سوى مرّتين على الأقل: كتيّب تشغيل سيّارة تويوتا كورولا 1974 التي يملكها شريك سكني. في تلك الظروف (الإدمان، وأعراض الانسحاب، والتوق، والرعب) بدا لي الجزء المتعلّق بناقل الحركة اليدويّ جميلاً كرؤية دانتي عن الوردة السرمديّة في النشيد 31 من *الفردوس*.

نوعٌ واحدٌ فقط من الكتابات غير الأدبيّة *أفضّله* أحياناً على *فردوس* دانتي، وهو - أدرك تماماً أنّ صورتي ستهتزّ وقد لا أسترجع مكانتي أبداً

1- Water Pik ماركة من أدوات ومنتجات العناية بالأسنان. م

- الكاتالوجات التي تصلني بالبريد. في حقيقة الأمر، التهمتُ كاتالوج نوردستروم السالف الذكر من الغلاف للغلاف، رغم أنّه لم يتضمّن أيّ شيءٍ مميّز بعد صورة التيس.

سأسارع هنا لذكر أنّني لا أطلب أبداً كاتالوجات. يروقني الاستنتاج أنّها تفقس في صندوق بريدنا بالتوالد الذاتيّ، لكنّها في الحقيقة نتاجُ قوائم العناوين البريديّة العشوائيّة التي تتزاوج سرّاً لقاء المال.

واحدةٌ من متع، أو مخاوف البريد العاديّ، هي أنّه يستحيل أن تعرف لمن سيُعطى عنوانك. صديقي روس بومان مصوّرٌ رافق مرّةً مجموعة من المبشّرين الأميريكيّين إلى نيكاراغوا، استعلم قبل الانطلاق في رحلته عن مناظير رؤيةٍ ليليّةٍ تُطلب بالبريد وتتيح له التقاط الصور أثناء غارات الكوماندوس في منتصف الليل دون استعمال الفلاش. منذ ذلك الوقت يغرق صندوق بريده تحت وابل كاتالوجات ومنشوراتٍ حول كيفيّة صناعة كاتم صوتٍ للبندقيّة من كاتم صوتِ عادم السيّارة، وصناعة النابالم من منظّفات الغسيل.

يستطيع روس على الأقلّ أن يتتبّع السبب وراء ما يستلمه، لكن لماذا أتلقّى أنا حصريّاً كاتالوجات عن السالسا، وعدّة ركوب الخيل، والشوّايات الكهربائيّة، والملابس ذات القياسات الكبيرة جدّاً أو الصغيرة جدّاً، ورحلات إلى أماكن هبوط الكائنات الفضائيّة، وتماثيل من الريزِن لغارغولات العصور الوسطى؟! هل تعلم تلك الشركات شيئاً عنّي أنا نفسي أجهله؟!

استنتجتُ أنّ السبب قد يكمن في كون البريد موجّهاً في أغلب الأحيان إلى آن ساديمان (عبر الهاتف صوت حرف إف يشبه إس، لذلك تعلّمنا في عائلة فاديمان عندما نطلب شيئاً أن نقول ف كما في فرانك. بأيّ حال في 25 ٪ من الحالات على الأقلّ يعتقد الطرف الآخر أنّنا نقول س كما في سرانك). آن فاديمان امرأةٌ متوسّطة العمر وأمٌّ لطفلين، لا تمتلك ميكروويف ولا مشغّل أقراص C.D في المقام الأوّل كي تمتلك

شرفةً لنصب الشوّاية الكهربائيّة عليها، أو منزلاً تتصل به الشرفة. أمّا *آن ساديمان*، يا إلهي، إنّها امرأةٌ مختلفة تماماً. الملابس بتدرّجات الأخضر الفاتح، والزهريّ، والأصفر، والبيج، والكيوي، والرمانيّ أو المطبّعة بنقشات الخزف أو الحصى أو الشوك أو الغيوم، وقمصان الجاڤا والإكسسوارات المصنوعة من الفلّين مجرّدُ عيّنةٍ من أشيائها المفضّلة في كاتالوج جي. كرو. مرتديةً قبّعتها ماركة ألتيمِت هات من تراڤل سميث والتي «هُرستْ بسيّارات اللاندروڤر، ورُميتْ من الطائرات، وضاعت في الأنهار الهادرة» تقوم آن ساديمان برحلاتٍ عديدةٍ إلى بحيرة تيتي كاكا، وهي حسب كاتالوج باوَر بلايسز تورز[2] إحدى «أعظم دوّامات الطاقة في العالم». كما أنّها تغوي الرجال بسهولةٍ فائقة (لأنّها نحتت جسمها بتمارين الماكارينا من أشرطة ڤيديو كولاج)، وكذلك الدعسوقات (لأنّها اشترت ثلاثة أكياس سهلة الاستخدام تستعمل مرّةً واحدة من جاذب الدعسوقات دانكرافت)[3]. تتكلّمُ لغاتِ اليوبيك[4] والهوسا[5] والتوي[6] كأنّها «دبلوماسيّة» بفضل أشرطة تعليم اللغات من أوديو فوروم (الأفضل من ذلك: دلّوني على سفيرٍ أميركيّ واحدٍ يتحدّث التوي بطلاقة وسآكل قبّعة آن ساديمان تلك). إنّها مولعة بحمّالة النهدين ميراكل برا من ڤيكتوريا سيكريت المرصّعة بما قيمته مليون دولارٍ من الماس، لكنّها مولعةٌ أيضاً للدرجة نفسها بكرامبونات[7] حذاء الثلج الفولاذيّة ذات الاثنتي عشرة سنّاً المصنوعة من خليط النيكل والكروم

2- Power Places Tours ينظّم رحلات إلى أماكن تُروّج قدرتها على الشفاء والشحن بالطاقة الكونيّة وتغيير حياة المسافر. م

3- Ladybug Lures from Duncraft فيرمونات جاهزة تستعمل لجذب الدعسوقات إلى الحدائق كي تكافح الحشرات الضارة حيويّاً دون استخدام مبيدات كيمائيّة. م

4- Yupik لغة من لغات الإسكيمو في وسط آلاسكا. م

5- Xhosa إحدى اللغات الرسميّة في جنوب إفريقيا وزيمبابوي. م

6- Twi لهجة من لهجات لغة آكان المحكية في جنوب ووسط غانا. م

7- crampon صفائح لها ما يشبه الأسنان تثبّت على نعل الحذاء لتسهيل الحركة على الثلج أثناء تسلّق الجبال أو المشي على الجليد. م

والمولبدينوم ماركة كامبمور. في الحقيقة، زوجها يشعر بإثارة خاصّة عندما ترتدي الحمّالة والكرامبونات معاً.

زوج آن ساديمان لم يكن موجوداً في الجوار للتعليق على هذه النقطة، لأنّه كان يطلب لها عبر الهاتف آلة تنظيفٍ بالأمواج فوق الصوت من شركة شاربر إيماج، والتي ستقوم دوراتها الفائقة البالغة 42 ألف دورة/ ثانية بالتخلّص أوتوماتيكيّاً من ذرّات الغبار المجهريّة العالقة في حمّالة نهديها المرصّعة بالماس. استجوبتُ زوج آن فاديمان عوضاً عنه.

طرحتُ عليه السؤال: «لماذا تقرأ زوجتك الكاتالوجات التي تصلها بالبريد؟!».

حدّق جورج في عينيّ مباشرةً وقال: إن كان شيءٌ ما موجّهاً إليكِ، لا يخطر ببالك أنّك تستطيعين رميه. أنتِ مطيعة بشكلٍ غريب.

هذا صحيح! يصعبُ عليّ أن أتجاوز إشارة «لا تمشو» حتّى ولو لم تكن هناك أيّ سيّارة على بعد أميال. بأيّ حال، أنتقمُ من الإشارة بأن أفكّر: لا تخطئوا في النحو.

اعترف جورج أنّه عندما يكون لديّ موعدٌ نهائيّ لتسليم عمل، يقوم أحياناً برمي نصف محتويات صندوق البريد مباشرةً في القمامة – *كاتالوجاتي!* – اعترفتُ بدوري أنّني قرّرتُ كتابة هذه المقالة فقط كي أجد عذراً لأقول إنّني أقوم ببحثٍ قبل الكتابة كلّما لمحني أقرأ أحد الكاتالوجات.

أنا أقرأ الكاتالوجات، وزوجي يحشو بطنه بالمقبّلات في حفلات الكوكتيل. أعتقد أنّ كلينا نقوم بذلك لسبب واحد: إنّها مجّانيّة! كيف سيبرّر جورج الذهاب لتناول السوشي بينما تنتظره كل لفائف السجق الدافئة تلك؟ وبالمثل، كيف أبرّر لنفسي أن أمشي إلى كشك الصحف لشراء *نيويورك ريفيو أوف بوكس* عندما يكون كاتالوج آلستو مساعدُ الحرفيّ أمامي في صندوق البريد، عارضاً بين بقيّة النصوص البليغة التي لا تُنسى 103 كلمات في مديح آلة صنع السماد الدوّارة نموذج رو- سي؟

أقرؤها أيضاً لأوسّع ثقافتي، فلولا كاتالوج ديزاين توسكانو الذي يعرض نسخاً طبق الأصل من التماثيل والتحف الأثريّة للمنازل والحدائق، لما عرفتُ أبداً ماذا تسمّى الأجزاء الثلاثة لخوذة الفارس المغلقة من القرن السادس عشر: واقية الوجه، وواقية العنق، والقطعة المتحركة.

أخيراً، أقدّر في الكاتالوجات تلك اللمحات الجماليّة الموحية التي تعرضها أحياناً عن عالم لا يمكنني دخوله. من سيقرأ كاتالوج غاريت ويد للأدوات ولا يفكّر «هل هذا شعر»؟ بالطبع أنا سأفعل. في الواقع ها هو ذا هايكو صحيحٌ مئة في المئة من حيث العروض والمقاطع مكوّن كليّاً من أدوات يمكن طلبها بالاتّصال على الرقم (800) 221-2942:

فأرةُ سحج الخشب، من جوينر،

قدّوم؟ مبرد باستارد!

دوزوكي للحرفيّين

آمل أنّكم لاحظتم اللمسة اليابانيّة في السطر الأخير والتي تشير إلى الأداة رقم 49117.01: منشارٌ «تنشر شفرته الخشب بسلاسةٍ فائقةٍ إلى مقاطع رقيقة للغاية» (أنا الآن أؤلّف شعراً مستوحى من كلمة: شفرة).

يتطلّب الأمر قصيدةً ملحميّة – وأنا غير مؤهّلة لنظمها بقدراتي الشعريّة المتواضعة – لتفي البضائع التي استعرضها كاتالوج سيرز- روبَك عام 1902 حقّها. ذلك الكاتالوج الذي يُعدّ وردة دانتي السرمديّة بالنسبة لما يصل بالبريد، استعرض 22 نوعاً مختلفاً من مطارق الحدّادين، 12 نوعاً من مبارد صانعي الساعات، و7 أنواع من مقصّات القرون. دفع ست مئة ألف شخصٍ خمسين سنتاً لقاء النسخة الواحدة، وهو ثمنٌ لا يستهان به. بخمسين سنتاً، أو حتّى أقل، كان يمكن شراء مشدّ ذي أربعة مشابك، أو صفارتين لنداء ديوك الحبش أثناء الصيد، أو ثلاثة كشتبانات من الفضّة الخالصة، أو أربع علب من بودرة الأقدام، أو خمسة شوارب مستعارة.

الجزء الأفضل في كاتالوج سيرز، وهو غير موجود للأسف في كلّ ما تلاه، مسردٌ من ثلاث عشرة صفحة. من سيقرأ القائمة التالية دون أن يتأثر؟

أحزمة للبطن..... 466
أكورديونات 205–206
دفاتر محاسبة..... 261
علاج الصلع من Acme 412
صابونة هارنس من Acme..... 411
أمشاط قابلة للتعديل..... 498
قدّوم..... 515–516
موقد محكم الإغلاق..... 827
نسيج صوفيّ..... 836
ألبومات صور، وبكرات أفلام، ونسيج مزيج..... 269–270

ومن تستطيع مقاومة إطراءاتٍ مثل: «سيّدتي، **بإمكانك أن تصبحي جميلة**. لا يهمّ من أنتِ، مهما كانت عيوبك، يمكنك أن تصبحي حسناء كأيّ امرأةٍ في الأرض باستعمال منتجنا: **رقاقاتُ الزرنيخ الفرنسيّة**»[8]. لاحظوا كم كان محرّرو سيرز، وروبَك، وشركاؤهم جديرين بالاحترام لاستعمالهم عبارة «بإمكانك أن تصبحي جميلة» وليس «كوني جميلة»، وهو اختلافٌ مهمٌّ.

تلك المساحة الضئيلة الحرّة التي تركوها ضاعت بعد ذلك ودفنتْ تحت الأسلوب الآمر للكاتالوجات:

قصّوا أظافر القدمين القاسية بسهولة
أوقفوا الفطر القبيح
تخلّصوا من كزّ الأسنان الليليّ

8- كانت تلك الأقراص رائجة بين النساء في القرن 19 يمضغنها طيلة النهار لتبييض البشرة، حيث يؤدي التسمم التدريجي بالزرنيخ إلى شحوب الجلد. م

تخلّصوا من رائحة الأنفاس البشعة لحيوانكم الأليف
حوّلوا منزلكم إلى صالون تدليك
استمتعوا بخبز البيغل دون زيارة الإسعاف
اصنعوا 12 نموذجاً مذهلاً من الأحذية الورقيّة ثم انطلقوا في نزهة
اقضوا على الحشرات بصاعق الحشرات الكهربائيّ
اقذفوا المخاط الأخضر المقرف لمسافة 35 قدماً
املؤوا النموذج البلاستيكيّ بالجيلاتين المعطّر برائحة الدرّاق، واحصلوا بعد عدّة ساعات على يدٍ يسرى بلون البشرة

حتّى آن فاديمان المطيعة دوماً تتمرّد. لن أفعل!

هذه الأوامر الجلفة (اقتبستها حرفيّاً من هيلثي ليڤينغ، وذا شاربر إيماج، وبرين ستورمز) تشوّه المستوى الأدنى فقط من طيف الأسلوب الكتابيّ في الكاتالوجات. في القمّة - رغم أنّ استخدام ضمير المخاطب هو السائد - المناخُ إخباريٌّ وأبعدُ عن صيغة الأمر كما كان الحال في العصر الذهبيّ لرقاقات الزرنيخ المبيّضة للبشرة. أقتبس هنا من كاتالوج جي. بيترمان: «اليوم كانت لوتشيا هي الأفضل منذ عدّة أجيال»، «قد يلاحظ شخصٌ ما أنّك تشبهين آڤا غاردنر»، «ما زلتَ تمتلك ساكسفون الآلتو ذاك»... *كيف عرفوا؟!*

في اليوم الذي يصل فيه كاتالوج جي. بيترمان إلى منزل فاديمان / ساديمان يتوقّف العالم. لا يُسمح لأحدٍ بمقاطعتي. الإشاراتُ إلى هنري جايمس، وآنا أخماتوڤا، وملوك سيكيم الشوجيال[9] توهمني أنّني أقرأ مواضيع قيّمة، والمعلومات المقتطفة حول قبّعة السير فرانسيس غالتون (كان لها مصاريع يمكن سحبها للأعلى كي لا يسخن دماغه)، ونوع القمصان التي ارتداها الأمراء الفرس وهم يلعبون البولو عام 1472 (لها

9- Chogyal of Sikkim: يطلق عليهم ملوك الدارما حكموا قديماً منطقتي لادك وسيكيم في الهند الحاليّة. م

قبّات مفتوحة) تقدّم مواضيع جاهزة للاستهلاك في الحديث أثناء حفلات العشاء. فضلاً عن ذلك، من يحتاج أطلساً عندما يتقن تهجئة سيلت، كُرُك، سوخومي، تطوان، موهو، بُيومِن، هوسوي بمجرّد قراءة البريد؟

تفسيري لسرّ جاذبيّة كاتالوج جي. بيترمان هو أنّه رواية رومانسيّة بالنسبة لنمط الأشخاص الذين يقضون عطلتهم في كُرُك[10]. على سبيل المثال (أقتبس من إعلانٍ لفستان طويل يصل إلى الكاحل من قماش الكريب الصينيّ المطبّع بالأزهار وله كمّان منفوخان):

«لقد أمضى الصباح بطوله يصلح السياج الشبكيّ، والمهمّة التالية هي صنع كومة سماد طبيعيّ. تشتدّ الحرارة، يخلع قميصه المصنوع من الفلانيل، وينتبه أنّك تركتِ النافذة حيث كنت متّكئة تقرئين بروست».

هذه الفقرة تقترح سلسلة من الافتراضات السعيدة:

1. أملك منزلاً ريفيّاً
2. أملك سياجاً شبكيّاً
3. أملك كومة سمادٍ طبيعيّ
4. لديّ وقتٌ كافٍ لقراءة بروست
5. أقرأ بروست وأنا ألبس فستاناً يصل إلى كاحلي له كمّان منفوخان

لكنّني لم أطلب الفستان بالبريد. المشكلة - وهي ما تجعل آن فاديمان زبوناً وهميّاً رغم أنّها قارئة مخلصة للكاتالوجات - أنّني لا أريد الشيء، بل الفانتازيا التي تدور حوله. لا أريد الأكمام المنفوخة، وإنّما المنزل الريفيّ، والمقعد قرب النافذة، وبروست.

في الحقيقة، رميتُ كاتالوج نوردستروم بأكمله في القمامة باستثناء الغلاف.

انسَوا الملابس. بعد أن أحصل على المنزل الريفيّ، أريد التيس.

10- Krk جزيرة في كرواتيا. م

قلاعُ أسلافي

في الرابعة من عمري، كنتُ أحبّ أن أبني قلاعاً بروايات ترولوب[1]، وهي مجموعةٌ للجيب من اثنين وعشرين جزءاً تعود لوالدي. كانت لدينا مكعّبات خشبيّة أنا وأخي، لكنّ روايات ترولوب أفضل: كحليّة اللون، يتناسب قياسها مع راحة يدِ طفل، وتشبه البطاقات لأنّ سماكتها قليلة مقارنةً مع طولها، ممّا يجعلها مثاليّة لبناء البوّابات وجسور القلاع.

المجموعة بحوزتي الآن. قبل أن أكتب هذه السطور تناولتُ ثلاثة أجزاء منها عن الرفّ، وقبل أن يتسنّى لكم نطق سير رافل شافل، انتهيتُ من بناء بوّابةٍ مقلقلةٍ بوضعِ «*حوليّة بارسِت*» الأخيرة فوق عمودين توأمين من «*الليدي آنا*» و«*دكتور ثورن*».

من أفضل الطرق لتعريف طفلةٍ بالكتب أن ندعها تصفّها بعضها فوق بعض، أو تعيد ترتيبها أو تقلبها رأساً على عقب، وأن تترك بصماتها على كلّ جزءٍ منها. تبدو لي معجزةً أنّ ديانا تريلِنغ[2] – التي كان عليها غسل يديها قبل أن تتناول كتاباً لمارك توين أو بلزاك من مكتبة والديها المحميّة بواجهةٍ زجاجيّة – كبرت لتصبح امرأةً تحبّ الكتب. طريقة والديّ كانت الملعب، أمّا طريقة أبويها فكانت غرفة العمليّات الجراحيّة. علاوةً على أنّ والدها اشترى مجموعته من الأعمال الكلاسيكيّة المجلّدة تجليداً

1- Anthony Trollope 1815–1882 روائي إنجليزي من العصر الفكتوري. أشهر أعماله سلسلة روايات تدعى حوليّات بارستشاير. م

2- Diana Trilling 1905–1996 مؤلّفة وناقدة أدبية أميركية كانت تعتبر من الوجوه الثقافيّة البارزة في نيويورك. م

فاخراً دفعةً واحدة من بائع جوّال، مرتكباً هرطقة أخرى لا يمكن لنا تخيّلها هي اعتقاده بأنّ المكتبة يصحّ أن تكون على نمطٍ واحدٍ لجميع الناس لا مفصّلةً خصّيصاً لصاحبها. أنا وأخي كنّا نرسم خيالاتٍ لا حدود لها عن أذواق والدينا، وطموحاتهما، ورغباتهما، وخطاياهما وذلك بتفحّص كتبهما لا بالتلصّص على خزانتيهما. كانت روحاهما هناك على رفوف الكتب.

احتوت مكتبة أبي كتباً من كلّ الكرة الأرضيّة تمتدّ على مدى ثلاثة آلاف عام، وركّزت بشكلٍ خاصٍّ على الشعر الإنجليزيّ والأدب الخياليّ من القرنَين الثامن عشر والتاسع عشر. القمامة الوحيدة إن جاز التعبير كانت كتب الخيال العلميّ، أمّا الكتب غير الأدبيّة فكانت فقط عن النبيذ والجبنة. رفّي المفضّل ضمّ الكتب التي ألّفها والدي، أحببتُ رؤية اسمي عليه - فاديمان فاديمان فاديمان - خصوصاً عندما كنتُ في الخامسة لأنّ فاديمان هي من أوائل الكلمات التي تعلّمتُ تهجئتها. عندما تنامت قدرتي على القراءة، أتذكّر أنّني تخيّلتُ إيراسموس شبيهاً بإد وين[3] لأنّه كتب شيئاً يدعى «*في مدح الجنون*»، أمّا أخي فيتذكّر كيف كان يفكّر - وهذا دقيقٌ أكثر - أن كيركيغارد شخصٌ مخيفٌ لأنّه ألّف «*المرض حتّى الموات*» و«*خوفٌ ورعدة*». كلانا اعتقد أنّ والدي قد جمع في شخصيّته بين الجنون وبين الرعب- لأنّ كتبه كانت كذلك - إضافةً لكلّ المشاعر الأخرى ما بينهما.

مكتبة أمّي كانت أقلّ تنوّعاً، وركّزت بشكل شبه حصريّ على الصين والفيلبين. تصفّحُ «*المبتدأ في كتابة الحروف الصينيّة*» (الذي نُشرَ في شانغهاي!)، أو «*كنتُ في كوريجيدور*»، (الذي يذكر أمّي بالاسم!)، كان مثيراً كاكتشاف أنّني ابنةٌ غير شرعيّةٍ لماتا هاري مثلاً، لكنّها إثارة يشوبها حزن! أبي الذي طالما تبجّح أنّه لم يفعل شيئاً في حياته غير

3- Ed Wynn 1886-1966 كوميدي أميركي اشتهر بدوره في كوميديا «المجنون الأفضل». م

التفكير، كان ما يزال الشخص ذاته الذي بدأ جمع الكتب في بدايات حقبة 1920، هو ومكتبته لم يتغيّرا. عكسه تماماً، كانت أمّي تعيش حياةً مليئة بالمغامرات. ولماذا تركتها؟ *لأنّها أنجبت طفلين*. كُتبها - التي تبدو ملكاً لامرأةٍ أخرى لم ألتقِ بها قطّ - تشهد على حجم التضحية التي أقدمت عليها لأجلنا أنا وأخي.

معاً، امتلك والداي حوالي سبعة آلاف كتاب. كلّما انتقلنا إلى منزلٍ جديد بنى النجّار لنا رفوفاً بطول ربع ميل، وكلّما غادرناه كان على المالكين الجدد انتزاعها. الحيطان في بيوت الآخرين بدت لي عارية، لأنّ جدراننا لم تكن مجرّد خلفيّة بيضاء فارغة لتعليق الصور، بل أعمالاً فنّيّة بحدّ ذاتها، موزاييك من الأرض حتّى السقف قطعه الملونة عبارة عن مستطيلاتٍ نحيلةٍ طولانيّةٍ مُبهجةٍ للمسّ، وإن كنتَ تحبّ رائحة الورق العتيق المغبر، مبهجة للشمّ أيضاً.

كتب ڤلاديمير نابوكوف في يوميّاته مرّةً أنّ ابنه في عمر الثامنة كان يربط أحرف الأبجديّة مع لونٍ معيّن: السين هي الأصفر، والفاء هي الأسمر، والميم بلون بيضة أبي الحنّاء الزرقاء. أنا، إلى يومنا هذا، متأثّرةً بالتجليد القماشيّ للكتب التي أحاطت بي منذ ثلاثين عاماً مضت، ما زلتُ أشعر بأنّ سوفوكليس لا بدّ أن يكون ترابيّ اللون، وبروست رماديّ، وكونراد بلون القرفة، ووايلد أخضر ليمونيّ، وبو أزرق بروسيانيّ، وأودين أزرق نيليّ، وروالد دال بنفسجيّ.

لا بدّ أنّ هناك كتّاباً ترعرعوا في بيوتٍ لا تحوي كتباً، وأخذهم تحت جناحه جارٌ أو معلّمٌ أو صاحب مكتبة... إلّا أنّني لم ألتقِ أيّاً منهم. ابنتي في السابعة، بعض آباء زملائها في الصفّ الثاني يشتكون أنّ أبناءهم لا يطالعون الكتب للمتعة. عندما أزورهم أجد غرف الأطفال محشوةً بالكتب الباهظة لكنّ غرف الأهل فارغة، أولئك الأطفال لا يرون آباءهم وأمّهاتهم يقرؤون كما رأيتُ والديّ يفعلان في كلّ يومٍ منذ طفولتي. أمّا عندما أدخل شقّةً وتلاقيني الكتب على الرفوف، وعلى الأرض، وعلى

الطاولة جانب السرير، وفوق خزان التواليت... أعرف من سأرى خلف بابٍ عُلّقتْ عليه لافتة «خاصّ- ممنوعٌ دخول الكبار»: طفلٌ متمدّدٌ على سريره يقرأ.

ببساطة، كان والداي يمرّران لي إرثاً تلقّياه بدورهما من أهلهما. عندما انتقلت أمّي في التاسعة من عمرها من أوتا إلى كاليفورنيا، غطّى والدها حائطاً طوله ستّ عشرة قدماً بخزائن الكتب، وغلّفت أمّها الرفوف بورقٍ أسمر محبحب، وهكذا أمضت والدتي صيفها بقراءة الأعمال الكاملة لديكنز. أمّا أبي فقد نشأ ضمن عائلةٍ من المهاجرين في بروكلين، وكانوا فقراء لدرجة أنّهم لم يذهبوا إلى مطعمٍ إلّا عندما أصبح مراهقاً، لكنّهم لم يكونوا فقراء أبداً لملء خزانتين من خشب الجوز الأسود بكتبٍ لتولستوي، وسكوت، وموباسات وأمثالهم. «قرأت إبسن عندما كنتُ في الثامنة»، أخبرني أبي «لكن حتّى قبل أن أقرأه، كان دائماً موجوداً *هناك*. عرفتُ أنّه كاتبٌ دراميّ نرويجيّ عظيم، جزءٌ من عالمٍ كنتُ أتّجه إليه بشكلٍ أو بآخر». في الأسبوع الماضي أفزعني وهو يتلو بلهجةٍ إيرلنديّة عدّة أسطرٍ كتبها كيبلنغ على لسان المجنّد مولڤاني في قصّة «*العساكر ثلاثة*» والتي قرأها قبل خمسةٍ وثمانين عاماً، في نسخةٍ غلافها أحمرُ وعنوانها ذهبيّ.

عندما كنتُ في الرابعة عشرة، لاحظتُ على رفوف العصر الأغسطسيّ المتأخّر[4] في القسم البريطانيّ من مكتبة أبي كتاباً قُلبَ كعبه نحو الداخل. امتدّت يدي إليه على الفور: *فاني هيل* (هذا الجهد لتغطية عينيّ البريئتين كان مقدّراً له أن يعطي نتائج عكسيّة عندما أخذتُ بعد سنتين من القسم النمساويّ كتاب «*الأمراض النفسيّة في كلّ يوم من حياتنا*» لسيغموند فرويد، واستنتجتُ أنّ أبي *أرادني* في لاوعيه أن أجد *فاني هيل*). برأيي،

4- فترة من فترات الكتابة الأدبيّة في بريطانيا بدأت في النصف الأول من القرن 18 وانتهت بموت ألكساندر بوب وجوناثان سويفت، تميّزت بتطوّرات مهمة على صعيد الأدب. م

مكتبات الأهل مكانٌ ممتاز كي يلتقي المراهقون والإيروتيكا للمرّة الأولى، خاصّة إن كانت أعمالاً أدبيّة راقية المستوى (لنقل جون كليلاند مثلاً أو فرانك هاريس أو أناييس نِن وليس خافييرا هولاندر)[5]. فالكتب يسهل الوصول إليها أوّلاً، وثانياً سيدرك الأبناء عند قراءتها أنّ أهلهم أيضاً - بقدر ما يبدو هذا غير معقول- لديهم مشاعر جنسيّة. *فاني هيل* تبدو خياراً جيّداً.

سألتُ عدداً من الكتّاب عمّا يتذكّرون قراءته من رفوف الأهل، نسبة عالية من الإجابات تضمّنت كتباً حملت طابعاً جنسيّاً. كامبل غيزلِن، روائيٌّ ومحرّر كتبٍ نشأ في مزرعةٍ غربي تكساس، أمضى ساعاتٍ طويلة معانقاً مجموعة «*أهمّ الأعمال الفنيّة*» خاصّة النسخة الملوّنة من لوحة أولمبيا لمانيه التي وصفها لي بقوله: «لا ترتدي شيئاً إلّا شريطة سوداء على عنقها، رجلاها متقاطعتان قليلاً لإخفاء الجزء الذي كنتُ أتحرّق لرؤيته». العالم والشاعر تشارلز بيل، الذي امتلك والده ثاني أضخم مكتبةٍ في الميسيسبي، انكبّ على المقاطع المثيرة في الأجزاء الستّة عشر من ترجمة ريتشارد بورتون «*ألف ليلة وليلة*». عندما ورث المجموعة قبل نصف قرن، اكتشف على الصفحة الفارغة ما قبل الأخيرة من الجزء الرابع قائمةً مكتوبةً بقلم الرصاص وبخطّ واهٍ للغاية من أرقام الصفحات التي تضمّ المقاطع المفضّلة لوالده المتوفّى.

الأجزاء الستّة عشر كلّها من «*ألف ليلة وليلة*» تبارك مكتبة تشارلز بيل اليوم، وهي إحدى أكبر المكتبات في سانتافيه. كامبل غيزلن لم يرث مجموعة «*أهمّ الأعمال الفنيّة*»، لكنّه ورث الطاولة الصغيرة المصنوعة من خشب أشجار الفاكهة التي كان يضع الكتاب عليها، وكذلك إنجيل العائلة الذي اعتاد والده قبل ستّين عاماً أن يقرأ مقطعاً منه كلّ ليلة، ممّا دفع كامبل اليافع للاعتقاد أنّ شاؤل وداود يتكلّمان بلهجة غربي

5- Xaviera Hollander 1943- بائعة هوى عبر الهاتف سابقة ومؤلّفة حقّقت مذكّراتها المعنونة: «العاهرة السعيدة: قصّة حياتي» أفضل المبيعات. م

تكساس. خلال ذلك الطقس، كانت أمّه تجلس إلى طاولة زينتها وتدهن وجهها بكريم بوند المرطّب للبشرة. «عندما أفتح الإنجيل اليوم (أخبرني كامبل) أسمع صوت والدي وأشمّ وجه أمّي».

بعض أصدقائي لا ينوون أن يورثوا كتبهم لأبنائهم، لاعتقادهم أنّها عبءٌ ثقيلٌ، وظيفةٌ لا تنتهي تتمثّل في توضيب وإفراغ الصناديق عند تغيير المنزل، وكأنّهم مستمرّون في فرض الواجبات بعد موتهم من عليين. لا أتّفق مع هذا الرأي، وأنوي أن أترك مكتبتي لطفليّ. ابنتي تحبّ منذ الآن أن تلقي نظرةً على كتبنا وتتخيّل عمّا تدور «*الأرنب يرتاح*»[6] هي قصّةٌ عن أرنب نعسان، و«*لحمٌ لرجلٍ واحد*»[7] هي لغز عن عدّة رجالٍ مجتمعين إلى طاولة العشاء يحصل واحدٌ منهم على الستيك بينما يحصل الآخرون على البروكولي فقط. يوماً ما ستقرأ تلك الكتب كما قرأت أنا «*في مدح الجنون*» واكتشفتُ أنّ صورة إيراسموس التي رسمها هولبين[8] بعيدةٌ كلّ البعد عن إيد وين. خيبتي كانت جزءاً من نضوجي.

منذ سبع سنوات عندما انتقل والداي إلى منزلٍ أصغر، تقاسمتُ أنا وأخي الكتب التي لم يأخذاها معهما آنذاك. ساعدهما أخي في التوضيب واتصل بي هاتفيّاً من كاليفورنيا معلناً اسم كلّ مؤلّفٍ وهو يفرغ المكتبة. «تشيكوف؟» سأل. «أكيد». أجبت. «تورجينيف؟»، «امممم» كنتُ أحسب ذهنيّاً مساحة رفوفي «لا. لا أعتقد» لاحقاً لمتُ نفسي بالطبع على رفض تورجينيف.

وضعتُ الكتب الأربع مئة التي آلت إليّ (متضمّنة ترولوب بالطبع، لكن ليس *فاني هيل* لسوء الحظّ) على حائطٍ خاصّ بها، وهو ما يكافئ بلغة المكتبة شقّة خاصّة بأهل الزوجة.

6- Rabbit at rest الجزء الرابع والأخير من سلسلة روايات الأرنب التي كتبها جون أبدايك ونالت جائزة البوليتزر عام 1991. م

7- One Man's Meat رواية كتبها E.B.White عام 1942. م

8- Hans Holbein الابن 1497-1543 أحد أشهر رسامي البورتريه الألمان في القرن 16. م

- أنتِ لا تريدين أن تُدنَّس كتبُ هيمنغواي الخاصّة بوالدك بكتب ستيفن كينغ الخاصّة بي. اتّهمني جورج.

- هذا ليس صحيحاً.

جرّب طريقة أخرى: والدك لا يريد أن تصبح كتبه مزاراً. ألم تخبريني أنّه كان يسمح لك باستخدامها لبناء *قلعة*؟

أصاب الهدف! أدركتُ أنّني بمحاولتي الحفاظ على مكتبة والدي دون أن تمسّ، كنتُ آمل أن أحافظ عليه وقد بلغ السادسة والثمانين آنذاك. استراتيجيّة فاشلةٌ على الأغلب.

الآن، يستقرّ ترولوب في قسم الأدب الڤكتوريّ في مكتبتنا، جنباً إلى جنب مع نسخنا المهترئة ذات الأغلفة الورقيّة التي تعود إلى أيّام الجامعة. لكنّني أفكّر بنقله إلى رفٍّ أخفض: ابننا ذو العامين بدأ يبدي اهتماماً بالبناء.

شركاء في العنف

عندما قرأ تشارلز ديكنز من *أوليڤر تويست* لجمهوره في قاعة سانت جايمس الممتلئة عن آخرها، قفز نبضه من 72 إلى 124 ولا عجب! ففي البداية أصبح فاجن. صديقه تشارلز كِنت الذي كان يتفرّج من المقصورات قال إنّ ديكنز ولعدّة دقائق «تقمّص الشيطان ذاته: ملامحه شوّهها الغضب، وحاجباه المقوّسان يتحرّكان كقرني استشعار حيوانٍ زاحفٍ قاتل... كلّ هيئته، نصف ثعلبٍ ونصف نسرٍ، كانت كشيطان جائعٍ للشرّ»، (ستتسارع دقات قلب أيّ شخصٍ إن تشابه مع ثديٍّ وزاحفٍ وطيرٍ معاً). بعدها نظر في اتجاه خشبة المسرح وكتب في الهوامش: «مقشعرّاً... نظر حوله مرتعباً... القاتل قادم!» أصبح ديكنز بيل سايكس حاملاً بيده هراوة غير مرئيّة. أخيراً أصبح نانسي وشهق «بيل! آه يا عزيزي بيل!» وهي تسقط أرضاً وقد غشّى دمُها عينيها.

بعد أن ضرب نانسي بالهراوة وشنق سايكس، ارتمى ديكنز على أريكةٍ في كواليس القاعة غير قادرٍ على التلفّظ بجمل مترابطةٍ عشر دقائق بطولها.

في الليلة الماضية وأنا أقرأ لابني قصّة بياتريكس بوتر «*الأرنب الشرير الغاضب*»، لم يكن بجانبي أحدٌ يعدّ ضربات قلبي. بأيّ حال، يبدو لي أنّ بياتريكس بوتر وتشارلز ديكنز قد ارتادا مدرسة الكتّاب العنيفين ذاتها، فعندما وصلتُ إلى الجزء الذي يقوم به الرجل بنسف ذيل الأرنب وشاربيه بالبندقيّة (بانغ!) أصدقكم القول إنّ كلينا أنا وهنري كنّا نتنفّس

بصعوبة. القراءة دون حضورٍ تتفوّق بعدّة مزايا على القراءة لجمهورٍ: كنّا منبطحَين على الأرض ولو أصبحتُ غير قادرةٍ على نطق جملٍ مترابطة لما انتبه هنري أبداً، كما كان ممكناً أن أدخل ملاحظاتٍ تحريريّة على النصّ مثل «لم تكن بندقيّة حقيقيّة». أمّا ديكنز، فبعد أن وصف «بركة الدم التي تموّجت وتراقصت في ضوء الشمس»، لم يكن بوسعه أن يلتفت نحو الجمهور - رغم أنّ طبيباً تنبّأ بحدوث هستريا جماعيّة بين السيّدات- ويقول: «لم يكن دماً حقيقيّاً».

نحن نقرأ جهراً في بيتنا طوال الوقت. إن بدأتم تشتبهون أنّنا كديكنز متخصّصون في المشاهد العنيفة، أخشى أنّكم على حقّ. في الأسبوع الماضي نهضتُ من السرير صباحاً ووجدتُ سوزانا تقضم مقرمشات الأرزّ بينما يقرأ لها والدها من «*الصبيّ*» التي يتعرّض فيها روالد دال اليافع إلى الضرب (مرّتين) بالعصا، واستئصال الناميات دون تخدير، ثمّ يكاد يفقد أنفه في حادث سيّارة.

- اقرأ لي مجدّداً كيف ظلّ أنفه معلّقاً في مكانه بخيطٍ صغير. قالت سوزانا.

لو كنتُ أمّاً أفضل لقلتُ: بعد الفطور، عوضاً عن ذلك انضممت إلى الجمهور... فجورج عمل في الماضي نادلاً وكان يغنّي كمفاجأةٍ في الحفلات التي يقيمها روّاد المطعم، لذلك فهو يتقن الربط بين الأداء المسرحيّ وبين تناول الطعام. عندما هاجم الأنف المتدلي بحماسٍ عرفتُ لماذا كان يتلقّى بخشيشاً كبيراً، ولاحظتُ أيضاً في صفاء الإفطار، صحّة فكرةٍ راودتني منذ زمنٍ طويل: *كلّ* أنواع القراءة هي أداء. ديكنز يحتلّ الطرف الأقصى الهيستيريّ من الطيف الذي يتمركز على طرفه الآخر والدان يحاولان هدهدة طفلهما إلى النوم بقراءة «*الجدّ الغسق*». في القراءة الصامتة، الكاتب فقط هو من يقوم بالأداء، أمّا في القراءة لجمهورٍ فالأداء جماعيّ، شريكٌ يقدّم الكلماتِ والآخرُ الإيقاعَ.

خشبة المسرح ليست ضروريّة، ولا البروفات، ولا حتّى الحضور.

عندما كان هاينَه[1] طفلًا قرأ دونكيشوت للأشجار والأزهار في قصر حدائق دوسلدورف، ولامب كان مؤمناً بأنّ قراءة مِلتون وشكسبير بصمتٍ جريمة حتّى ولو لم يتواجد حوله مستمعون. في الأسبوع الثاني من صفٍّ جامعيّ درسته في اليونان كنتُ متحمّسة لإتقاني الأحرف الأبجديّة لدرجة أنّي كنتُ أروح وأجيء في غرفتي ممطرةً أثاثي بأوّل سطرين من *الأوديسة* مئات المرات:

Ἄνδρα μοι ἔννεπε, Μοῦσα, πολύτροπον, ὃς μάλα πολλὰ πλάγχθη, ἐπεὶ Τροίης ἱερὸν πτολίεθρον ἔπερσε·

كنتُ أميّز كلمتين لا غير: مُلهِمة وطروادة. لكن لا يهمّ! هومر خُلقَ ليُنطَق، ورغم أنّني لم أمتلك أدنى فكرة عمّا يقوله لكن كان بمقدوري سماع البحر الداكن كالنبيذ يصطخب خلف كلّ تفعيلةٍ مرتجفة.

يعيش والدي في مملكةٍ هوميريّةٍ سمعيّةٍ منذ أن فقد بصره. وأنا طفلة كان يقرأ لي دائماً متخصّصاً بالدكتور سوس، بعدها بسنين عديدة قرأ لي الجزء الأوّل من «*الحرب والسلام*» وأنا أتعافى من استئصال اللوزتين، لذلك ما زلت أربط بين الأسماء الروسيّة المؤلّفة من ثلاثة مقاطع فأكثر وبين التهاب الحنجرة. الآن أنا أقرأ له، وهذا الانقلاب في الأدوار بيننا كان محيّراً، ففي البداية شعرتُ بأنّني أنا الأب وهو الطفل مع فارق أنّ الطفل يصحّح لفظي طيلة الوقت. ملتون الضرير عاش جوّاً مشابهاً، فبناته كنّ يقرأن له باليونانيّة، واللاتينيّة، والعبريّة، والسريانيّة، والإيطاليّة، والفرنسيّة وهنّ لا يتحدثّن أيّاً من تلك اللغات، في نهاية المطاف تذمّرن بشدّةٍ فأُرسلن خارج البيت لتعلّم التطريز. أنا أقرأ بالإنجليزيّة فقط ودائماً ما أستمتع بذلك باستثناء عندما أتّصل بأبي لأقرأ له تأبين أحد أصدقائه القدامى، وهنا تضيع الخصوصيّة الحميمة بالقراءة جهراً، لأنّه غير قادرٍ على الاحتفاظ بحزنه لنفسه كما لو أنّني أرسلتُ له الصفحة المقصوصة

1- Heinrich Heine 1797-1865 شاعر وصحفي وناقد ألماني. يشتهر بشعره الغنائي الذي رافق مؤلّفات شومان وشوبرت الموسيقيّة. م

بالبريد. حالما أسمعه يسعل سعالاً خفيفاً على الطرف الثاني من الخطّ أسارع لقراءة قائمة من يزالون على قيد الحياة وأين ستقام مراسم التشييع، مدركةً أنّ صوتي يحول بينه وبين صديقه الراحل عوضاً عن أن يجمعهما.

«بالقراءة جهراً» كتب هولبروك جاكسون: «أنت تحظى بنعمةٍ كبرى. أوّلاً أنت تقترن بكلّ ما هو نبيلٌ وجميلٌ فكراً وخيالاً، وثانياً أنت تنقله للآخرين، كأنّك تقوم بمغامرةٍ بين الأعمال العظيمة ثمّ تنشر أخبار اكتشافاتك. لا أخبار أحقّ بالنشر منها، ولا أشياء أخرى جديرةٌ بالمشاركة أكثر».

إن كان العمل العظيم الذي تقرؤه للآخرين من تأليفكَ، فالأجدر بأدائك أن يكون مذهلاً كأداء ديكنز، الذي قيّم الممثّل الدراميّ ويليام تشارلز ماكريدي قراءته لـ«سايكس ونانسي» بأنّها تساوي «اثنتين من ماكبث». كان على مستمعيه دفع بضعة شلناتٍ لقاء الحضور، بينما نستمع نحن مجّاناً للكتّاب المشهورين يقرؤون في متاجر الكتب، أو كما في حالة جاي ماكنيرني، الذي روّج مؤخراً لكتابٍ يُدعى «*يتأنّق ليقتُل: جايمس بوند، بطلٌ في بدلة*» في متجر ساكس لملابس الرجال الراقية في الفيفث آڤينو.

إجمالاً، القراءة لجمهورٍ خاصٍّ أمتع من القراءة لحشدٍ ضخم. من الذي لا يتمنّى أن يسترق السمع إلى بليني وهو يسلّي ضيوفه بمقاطع من أعماله، أو إلى تولستوي الذي كان كثيراً ما يقرأ حصيلته اليوميّة من الكتابة لأفراد أسرته، أو حتّى إلى النرجسيّ المحبوب تِنيسون الذي قرأ «مود» مرّةً لآل براوننغ[2] وعدّة أصدقاء، وكان يتوقّف كل بضعة أسطر ليغمغم: «هاكم لمسةً رائعة! هذا مؤثّرٌ للغاية! كم هو جميل!».

أكثر القراءات خصوصيّة على الإطلاق هي التي يقوم بها العشاق. أتذكّر أنّني ورفيقي في أيّام الجامعة تشاطرنا سريره الضيّق في إحدى الأمسيات، متمدّدين رأساً لقدمٍ كي نؤخّر الإغواء إلى أن ننتهي من

2- The Brownings المقصود بهما الزوجان الشاعران روبرت براوننغ 1812-1889، وإليزابيث باريت براوننغ 1806-1866. م

الدراسة، ونحن نتبادل فيما بيننا نسخة ضخمة بنيّة اللون من «*الشعراءُ الرومانسيّون*» ونقرأ بالتناوب «*أغنيات البراءة والتجربة*» لويليام بلايك. لم نتقدّم كثيراً. قبلنا بسبع مئة عام وقع باولو وفرانسيسكا أخت زوجته في المشاكل وهما يقرآن السطور ذاتها:

الزمن، وعيوننا مجدّداً التقت

بفضل الكتاب الذي نقرؤه، وجوهنا تحمرّ وتشحب

كانا يتبادلان الأدوار بقراءة «*لانسيلوت دو لاك*»، وعندما وصلا إلى قبلة غوينيفر المحرّمة، خُتمَ قدرهما، أو كما وصفت فرانسيسكا ما حدث بتحفّظٍ في النشيد الخامس من جحيم دانتي: «لم نقرأ أكثر ذلك اليوم».

أين انتهى المطاف بباولو وفرانسيسكا؟ في الدائرة الثانية من الجحيم، المستقرّ النهائيّ للعشّاق الشهوانيّين، حيث تطوّحهم للأبد ريحٌ عاصفة. وهذا يدلّ على – كما في معظم الأمور التي تستحق القيام بها – أنّ القراءة جهراً قد تكون خطرة. في الواقع، مجرّد *سماع* قصّة فرانسيسكا كان كافياً كي يُغمى على دانتي ويتهاوى على أرض الجحيم.

أنا وجورج كثيراً ما نسقط مغشيّاً علينا ونحن نقرأ واحدنا للآخر. لكن كمعظم الأزواج الذين لديهم أطفال صغارٌ، لا يهدّنا أمرٌ قد ينتهي بنا إلى دائرة دانتي الثانية، وإنّما التعب غالباً. اختيار كتاب مناسب للقراءة في سرير الزوجيّة مهمّة لا يجب الاستهانة بها، راندولف تشرشل[3] أصرّ على قراءة «*انحطاط وسقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة*» لزوجته باميلا وانظروا ماذا حلّ بهما. جرّبنا أنا وجورج أن نقرأ «*دكّان العجائب القديم*» لكنّني قرّرتُ أن نتوقّف بعد الفصل الثالث، عندما تكوّنت لديّ فكرةٌ عمّا يخبّئه تشارلز ديكنز لنيل الصغيرة. جرّبنا بعد ذلك «*ميدل مارش*» وعلقنا في الصفحة

3- Randolph Churchill 1911-1968 صحافي وكاتب بريطاني وعضو في برلمان بريستون 1940-1945، كان الابن الوحيد لرئيس الوزراء وينستون تشرشل. عاش حياةً مليئة بالمشاكل وانتهى زواجه من باميلا بالطلاق. م

الثانية بعد أن غفا جورج ثلاث ليالٍ على التوالي أثناء قراءة الاستهلال عن القدّيسة تيريزا. انتهينا أخيراً إلى قراءة ترجمة روبرت فاجلز *للأوديسة*، والوضع ممتازٌ حتّى الآن، وصلنا إلى منتصف الجزء الخامس ولم نفوّت ليلة. جميلٌ أن أسمع جورج يقرأ السطور التي كنتُ أردّدها باليونانيّة، بعد أن مُحيت من ذاكرتي مع معظم ما تعلّمته من تلك اللغة:

غنّي لي أيّتها الملهمة، عن الرجل الواسع الحيلة الضليع بالقتال
الجوّال في مسارات المنافي دائماً وأبداً
بعد أن حطّم أسوار طروادة المقدّسة

لكنّ رحلتنا بطيئة جدّاً! في أثناء القراءة جهراً ممنوعٌ الحذف أو التصفّح السريع أو القفز مباشرةً للنقطة المهمّة. بالإيقاع الذي نقرأ به سنستغرق ستّة أشهرٍ لإيصال أوديسوس إلى وطنه إيثاكا - وهذا ليس سيّئاً إذا تذكرنا أنّ رحلته استمرّت عشر سنوات- في الواقع، إيقاعنا البطيء المتلذّذ له مزاياه أيضاً، فالشعر يتكشّف لنا على مهلٍ، بسرعةٍ تتناسب مع حياة الأيونيّين في القرن الثامن قبل الميلاد لا مع حياة النيويوركيّين المعاصرين المستعجلين، وكلّما تقدّمنا في قراءته هدأنا نحن كذلك. عندما بدأنا كنت أشعر أن مشاغل الحياة تمنعنا من قراءة هومر، أما الآن فأشعر أن هومر يشغلنا عن كل ما عداه.

مشكلتنا الوحيدة هي البقاء مستيقظين.

عندما يلاحظ جورج أنّني على وشك أن أغفو، يبقيني متنبّهة بإدخال تعديلاتٍ لمّاحةٍ على النصّ. مثلاً، سيقول تيليماخوس لمدبّرة منزله العجوز يوريكليا:

تعالي، أيّتها المرضعة
صبّي لي بعض النبيذ في عبواتٍ حافظة أصغر
حلواً، من أفضل ما تخزّنين
ربّما قليلاً من موتون كاديه[4]

4- Mouton Cadet أحد أفضل أنواع نبيذ بوردو، يصنع من تخمير عدّة أعناب معاً. م

لكن بينما أنحدر إلى أرض آكلي اللوتس[5]، تنحدر كذلك قدراتي النقديّة. «أولئك الخاطبون»[6] غمغمتُ بصوت خافت «إنّهم يذكرونني بالقطّ ذي القبّعة».

- حقّاً؟ قال جورج.

- تتذكّر كيف اقتحم المنزل، وأغار على الثلاجة، وأكل كعكة، وترك مقعد حوض استحمام زهريّاً كبيراً.

- أجل. ردّ جورج وهو شبه نائم. أعرف ما تقصدينه. وبعدها انحنى عليّ ليقبّلني متمنّياً لي ليلة سعيدة.

لا أندم أنّنا تجاوزنا الاندفاعات الغراميّة لمرحلة شبابنا. الزواج هو مسارٌ طويلٌ والقراءة واحدنا للآخر هي نوعٌ رومانسيّ من مشروبات الطاقة يُقدّم أحياناً لينعش المتسابقين المتعَبين.

إحدى مقالات التأبين التي قرأتها لوالدي منذ ثلاث سنواتٍ كانت عن فرانسيس ستيغمولر، وهو أكاديميّ متخصّص بأدب فلوبير. في أواخر أيّام حيّاته بعد أن بدأت ذاكرته تخونه، كان وزوجته شيزلي هازارد يتبادلان الأدوار في القراءة بصوتٍ عالٍ بعد الإفطار كلّ يوم. كتبت *النيويورك تايمز*: «في اليوم الذي سبق وفاته، تذكر السيّدة هازارد أنّهما أنهيا قراءة «أنطونيو وكليوباترا» معاً بعد أن سبق لهما قراءتها عدداً لا يحصى من المرات، بين أصص الجيرانيوم التي كان ستيغمولر يحبّ العناية بها على شرفة منزلهما المطلّ على خليج نابولي».

آمل أن نكون محظوظين مثلهما، أنا وجورج.

5- في الميثولوجيا الإغريقية أرض آكلي اللوتس هي جزيرة صغيرة يعتقد أنّها جزيرة جربا التونسية، يتغذى أهلها فقط على أوراق وثمار شجرة اللوتس المخدّرة التي تدخلهم في سبات سعيد. م

6- خاطبو بينلوب والدة تيليماخوس في الأوديسة. م

إمبراطوريّةُ كُتبِ رئيس الوزراء

قبل عدّة سنوات، ابتعتُ كتاباً مستعملاً عنوانه: «*عن الكتب واستضافتها*». في حقيقة الأمر، تسميته بالكتاب مبالغةٌ – أو تصغيرٌ – في معنى الكلمة. فهو، رغم غلافه المتين، مكوّنٌ من تسعٍ وعشرين صفحةٍ فقط. بالكاد لاحظتُ أنّ مؤلّفه يدعى غلادستون، لكن لم يخطر ببالي أنّه غلادستون *ذاك*. ما دفعني لشرائه رغم ثمنه الباهظ نسبيّاً (ثمانية دولارات أي 28 سنتاً للصفحة) هو موضوعه، إذ لا يمكنني أبداً مقاومة كتابٍ عن الكتب.

بعد ذلك أضعتُه، أو بالأصحّ، ضاع من تلقاء ذاته. لقد كان رقيقاً جدّاً لدرجة أنّ كعبه القرمزيّ لم يتسع لطباعة العنوان، فغدا بالتالي غير مرئيّ عندما حُشرَ بين جارين سمينين، كما تختفي بلوزةٌ رقيقة أشهراً على علّاقة في خزانة غاصّة بالملابس. من ثمّ، وأنا أنتزع كتاباً في الصيف الماضي من أحد الرفوف – الذي كان مكتظّاً لدرجة أنّني كدتُ أستعين بعتلة – سقط الكتاب الهزيل.

تفحّصته بدقّة هذه المرّة. لقد نُشرَ في أيّار 1898، بطبعةٍ محدودةٍ من خمس مئة كتاب ممّا جعل الدولارات الثمانية تبدو سعراً عادلاً. بورتريه المؤلّف في داخله كانت صورة سيبيا لعجوزٍ شعره أبيض وخدّاه مترهّلان، لكنّ نظرته حادّةٌ كطيرٍ جارح. تحت الصورة كُتب: ويليام يوارْت غلادستون 1809–1898. إنّه حقّاً غلادستون *ذاك*: رئيس وزراء بريطانيا أربع مرّات، وعضوٌ مخضرمٌ في حزب الأحرار، وعالمٌ، ومستشارٌ ماليّ، ولاهوتيّ، وخطيب، وناشط في حقوق الإنسان، وشوكة

في خاصرة بنجامين دزرائيلي الذي أجاب عندما سئل مرّةً عن الفرق ما بين سوء الحظّ وما بين الكارثة: «إن سقط السيّد غلادستون في نهر التايمز، فهو سوء حظّ. أمّا إن أنقذه أحدهم، فتلك هي الكارثة».

اكتشفتُ لاحقاً أنّ «*عن الكتب واستضافتها*» نُشر في الأصل عام 1890 كمقالة في صحيفة بريطانيّة تدعى *ذا نايتينث سينشري*، ويبدو أنّ ناشراً من نيويورك هو إم. إن. مانسفيلد قد قدّرها تقديراً عالياً لدرجة إعادة نشرها فيما أدركتُ الآن أنّه طبعةٌ تذكاريّة: توفّي غلادستون في 19 أيّار 1898 فسارع الناشر لطباعة الكتاب الصغير قبل انقضاء الشهر (شغّلوا أجهزة الكمبيوتر وحاولوا أن تقلّدوا ذلك يا راندوم هاوس)، والذي طواه النسيان بعد ذلك، حتّى إنّه لم يُذكَر في سيرة حياة غلادستون التي كتبها روي جِنْكينز والمؤلّفة من 698 صفحة.

العكس هو المفروض أن يحصل! إن أردتم أن تفهموا شخصيّة كلّ من ويليام يوارْت غلادستون وإنجلترا الڤكتوريّة فالمفتاح موجودٌ في «*عن الكتب واستضافتها*». يرد في مسرد جنكينز تحت بند «غلادستون، ويليام يـوارت، سماته الشخصيّة»: النشاط، والتزمّت الأخلاقيّ، والانضباط وحبّ النظام، والغرور، والنزاهة، والأناقة وحبّ الترتيب، والتسلّط، والتصميم. هذه الصفات الڤكتوريّة الجوهريّة تنضح من كلّ صفحةٍ من صفحات كتاب غلادستون. التنظيم الكفء الذي أراده بحماسٍ، ولكن عبثاً للإمبراطوريّة البريطانيّة، تمنّاه بالدرجة نفسها – وحقّقه – في الإمبراطوريّة المصغّرة التي تمثّلها مكتبته.

ثيمة «*عن الكتب واستضافتها*» بسيطة: كتبٌ كثيرة، ومساحةٌ ضيّقة. المشكلة، قال غلادستون، تُحلّ بنظام رفوفٍ يمكن أن «يحول بين مواطني بريطانيا العظمى وبين نبذهم إلى مياه البحار المتاخمة بعد عدة قرون بسبب النموّ الهائل لمكتباتهم». هذه الملاحظة كانت ساخرةً وطموحة في آنٍ، فغلادستون يتميّز بالبخل المتأصّل في شخصيّة الاسكتلنديّين. يوميّاته – التي تبدأ عندما كان في الخامسة عشرة وتستمرّ إلى أن تخلّى

عن كتابتها في الخامسة والثمانين بعد فقدانه البصر نتيجة السادّ - غالباً ما تفصّل مجريات يومه بفواصل خمس عشرة دقيقة، وكانت حسب تعبيره: «دفتر حسابات لهدايا الوقت الثمينة». كوالده، الذي كان رجل أعمالٍ ماكر لم يبذّر بنساً، غلادستون لم يهدر دقيقة قطّ.

جايمس غراهام الذي كان وزيراً مع غلادستون في حقبة 1840 تعجّب قائلاً: «إنّه ينجز في أربع ساعات ما يستغرقه رجل آخر ستّ عشرة ساعة، ويعمل ستّ عشرة ساعة في اليوم». من المنطقيّ إذن بالنسبة لغلادستون القادر أن يحشر في يومٍ واحد ما يحتاج غيره أسبوعاً لإنجازه، أن يطمح لحشو غرفةٍ واحدةٍ بكتبٍ تتطلّب منزلاً بأكمله.

ها هي خطّته: «أوّلاً كقاعدة، يجب أن تكون الرفوف ثابتة، ثانياً كلّ خزائن الكتب أو معظمها يجب أن تثبّت عمودياً من جوانبها على الجدار كي تمتدّ إلى مسافةٍ معقولةٍ داخل الغرفة. عمقها يجب أن يكون ضعف المسافة اللازمة لاحتواء كتاب، كي تسع صفّين من الكتب يُرتّب بعضها مقابل بعض». هذا مجرّد تمهيد، الموضوع تطلّب عدّة آلافٍ من الكلمات لشرح التفاصيل، فعلى ما يبدو إنّ بخل غلادستون لم يطلْ إدمانه على الكتب. كخطيبٍ في البرلمان كان كما وصفه دزرائيلي: «يثمل بإسهابه الغزير»، أمّا ككاتبٍ فلعلّه الوحيد الذي ألّف كتاباً من ثمانٍ وعشرين صفحة في التاريخ.

بالنسبة لرفوف الكتب التي تمتدّ بزاوية قائمة في الغرفة، قال: «يجب أن يتّصل كلّ منها بما أسمّيه مبدئياً قطعة انتهائيّة (البحث جارٍ عن اسم أفضل)، وهي خزانةٌ قليلة العمق وخفيفة جدّاً (لأنّ رفوفها ضيّقة) تفيدُ بزيادة السعة وتشكّل الجانب القصير مع الجزأين الطويلين من متوازي مستطيلاتٍ كي تقدّم الكتب إلى حواف الرفّ كالخيوط، عندما تتحرّك بين الصفوف».

نستطيع أن نفهم لماذا، خلال اجتماعٍ لمجلس الوزراء عام 1884، قام جوزيف تشامبرلاين رئيس مجلس التجارة بارتجال نقشٍ لشاهد قبر

رجل الدولة الذي لا بديل له والذي ما زال حيّاً يرزق، ومرّره عبر الطاولة إلى وزيرٍ آخر:

هنا يرقد السيّد غ. الذي تركنا حزانى
بينما هو - بلا شكٍّ - ما يزال منهمكاً بالتعديلات
يشرح الفروق لبولص وبطرس
اللذين اشتكيا أنّها صغيرةٌ للغاية
لم يُشوّش القدّيسان من قبل برفعها إليهما
إلى أن جاء رئيس الوزراء كي يغيظهما.

استناداً إلى السيّد غ. مكتبة أبعادها عشرون في أربعين قدماً، مع خزائن عموديّة طولها ثلاث أقدام بعمق 12 إنشاً وارتفاع تسع أقدام «كي يكون بالإمكان الوصول إلى الرّفّ العلويّ بالوقوف على منصّة خشبيّةٍ من درجتين لا يزيد ارتفاعها عن عشرين إنشاً» ستسع ما بين ثمانية عشر ألفاً إلى عشرين ألف مجلّد. أثق بحساباته، فهو من كان يشغل منصب وزير ماليّة.

هذه الخطّة تناسب منزل نبيلٍ عاديّ، أمّا في حالة الاكتظاظ الشديد بالكتب فقد طرح نموذجاً راديكاليّاً أكثر يتضمّن «تحويل ثلثي أو لنقل ثلاثة أخماس مساحة شقّةٍ حسنة التقسيم إلى ما يشبه كتلة مصمتة من الكتب»، وشرحه بالتفصيل في الهامش لكنّه استثنائيّ لدرجة أن أقتبسه شبه كاملٍ هنا:

لنفترض أنّ أبعاد الغرفة 28 في 10 أقدام، وارتفاعها أكثر بقليل من 9 أقدام. نقطع الغرفة طوليّاً بممرٍّ عرضه أربع أقدام، يزيد آخره عن حافّة الحائط بمقدار 12-18 إنشاً، على أن تكون نهايته نافذةً أو باباً زجاجيّاً في الجهتين. يتحرّك في الغرفة 24 زوجاً من العربات تحمل 56 خزانة كتبٍ يفصلها الممرّ وتصل إلى السقف، عرض كلّ منها 3 أقدام وعمقها 12 إنشاً، مفصولة عن مجاوراتها بمقدار إنشين، وتستقرّ على عجلاتٍ صغيرة أو بكرات أو أسطوانات كي تتحرّك على طول العربات. يجب أن تتّصل مقابض متينةٌ بالوجه الداخليّ لكلّ خزانةٍ كي تُسحب إلى الممرّ.

كلّ خزانةٍ ستتسع لخمس مئة ملزمةٍ مكوّنة من ثماني أوراق، بالتالي غرفة أبعادها 28 في 10 أقدام يمكن أن تستوعب خمسة وعشرين ألف مجلّد، وغرفة أبعادها 40 في 20 قدماً (لا داعي لأكبر) ستتسع لستّين ألف مجلّد.

نظام الرفوف المتحرّكة الذي ابتكره غلادستون يُستخدم اليوم في مكتبة بودليان راديكليف كاميرا[1]، وفي *ذا نيويورك تايمز بوكس ريڤيو* من بين أمكنةٍ أخرى. هذا النظام، كمبتكره، لا يضيّع إنشاً مربّعاً.

رأيتُ صورةً فوتوغرافيّة لغلادستون في مكتبته الخاصّة في قلعة هاواردِن والتي أطلق عليها اسم معبد السلام. كان جالساً على كرسيّ خشبيّ ذي مسندين بين كتبه المغلّفة بالجلد المرتّبة على رفوفٍ بُنيتْ وفق المبادئ التي عرضها في «*عن الكتب واستضافتها*» (نموذج الرفوف القائمة لا العجلات المتحرّكة). طيلة أربعةٍ وأربعين عاماً، وفّر له معبد السلام فردوساً بعيداً عن معترك السياسة، وفيه ألّف كتابه الصغير قبل أن يبلغ الثمانين، ما بين فترتيه الثالثة والرابعة كرئيس وزراء. دوّن ذلك في يوميّاته بتاريخ 17 كانون الأوّل 1889، وهو «اليوم الذي سبق مراجعتي وتشذيبي لكلّ النقاط التي قد تتطلّب التغيير أو التعديل في خطّة الحكومة الإيرلنديّة قبل اجتماعي بالسيّد بارنِل».

حين تثقل كاهله أعباء حكم بريطانيا العظمى، كان غلادستون يلهي نفسه بواحدٍ من ثلاثة: قطعُ أشجارٍ ضخمةٍ بالفأس، أو التجوّل في لندن للحديث مع العاهرات، أو ترتيب الكتب. ثلاثيّة حلولٍ خارجةٍ عن المألوف، خاصّة الحديث مع العاهرات الذي يهدف ظاهريّاً إلى إصلاحهنّ لكنّه كان يحرّض في المصلح أحياناً شهواتٍ دنيا يُعاقب نفسه عليها بالجلد بالسوط في سبيل التوبة. قطع الأشجار بالفأس له مساوئه أيضاً (رضوض الأصابع، نثارات الخشب في العين)، أمّا ترتيب الكتب الذي وصفه جنكينز بأنّه كان

1- Bodleian Library's Radcliffe Camera مكتبة ضخمة في جامعة أكسفورد وضع حجر الأساس لبنائها عام 1773. م

يصل إلى حدّ الهوس، فهو الوحيد الآمنُ الباعث على الرضا. إذ لربّما عارض البرلمان بشراسةٍ خطط غلادستون لتقليص ميزانيّة الدفاع أو قانون الحكم الذاتيّ لإيرلندا، أمّا كتبه فكانت دائماً مطواعة.

غلادستون لم يعهد قطّ بمهمّة ترتيب الكتب - وهي مهمّة لا تنتهي، لأنّه كان يشتري حمولة عرباتٍ من الكتب - إلى سكرتير. «كيف يعهد رجلٌ يحبّ كتبه بصدقٍ»، سأل «إلى أيّ كائن بشريّ آخر بمهمّة الترحيب بها إلى منازلها طالما أنّه على قيد الحياة؟». وكان قبل أشهرٍ قليلة من كتابة هذه الكلمات قد أنشأ مكتبة في قرية هاواردِن نقل إليها بواسطة عربة يدٍ عشرين ألف كتابٍ من مكتبته الخاصّة، وقام بترتيبها كلّها بنفسه.

أعتقد أنّ الكتب - شراءها، وقراءتها، والتعليق عليها، وفهرستها، وترتيبها، والكتابة عنها- أنقذت غلادستون من الإصابة بالشلل بسبب ضغوط حياته. دونها ما كان ليعمّر إلى سنّ الثامنة والثمانين الذي يبعث على الدهشة إذا أخذنا بعين الاعتبار إصابته بالحُمرة[2]، التهاب القصبات، والتهاب اللوزتين، وعسر الهضم، وألمِ أسفل الظهر، والساد، وذات الرئة، وأخيراً سرطان الحنك.

كتب مرّة: «يجب أن توضع الكتب بالضرورة في خزائن، والخزائن يجب أن يستضيفها منزلٌ يُعتنى به. المكتبة يجب أن ينفض الغبار عنها، وأن ترتّب وأن تُصنّف. يا له من مشهدٍ لعملٍ شاقّ، لكنه ممتع».

وأنا أتأمّل مشهد شقّتي المختنقة بالكتب، أتساءل أحياناً إن كان الحلّ الوحيد الذي سيمنع مكتبتي من نبذي إلى شوارع مانهاتن هو زيارة من غلادستون وبعض الرفوف ذات العجلات. سنعمل معاً كتفاً إلى كتف، كمهووسَين سعيدَين يغطّينا الغبار، وعندما ننتهي سينعم الكتاب الصغير ذو الكعب القرمزيّ بحيّزٍ للتنفّس.

2- إنتان جرثومي يحدث فيه التهاب في أدمة الجلد يمتد للأوعية اللمفاوية السطحية ويتظاهر بألم وتورّم واحمرار وسخونة في المنطقة المصابة. م

نثرٌ مستعملٌ

صبيحة عيد ميلادي الثاني والأربعين، أبلغني جورج أنّه سيقتادني إلى وجهةٍ سرّيّة. تبتعته إلى المترو، ثمّ ترجّلنا في محطة الغراند سنترال حيث أمرني أن أبقى على مسافةٍ معقولةٍ ريثما ابتاع بصوتٍ خافت تذكرتي ذهابٍ وإيابٍ إلى مكانٍ ما. بعد رحلةٍ دامت نصف ساعةٍ عبر برونكس ويونكرز وصلنا إلى مدينةٍ تدعى هاستنغز أون هادسن. ما الذي ينتظرني هنا؟ مطعم ثلاث نجوم؟ مجموعة فنّيّة راقية؟ منطادٌ مع زجاجة شمبانيا ڤيف كليكو ضخمة وباوند من الكافيار، سنحظى منه برؤية دقيقةٍ لوادي هادسن؟

تبعتُ جورج على طول الشارع العام النائم ثمّ عبر هضبةٍ وعرة.

- ها نحن ذا. قال.

عندها رأيته: متجرٌ لوّحه الطقس، يستقرّ على منحنى شديد الانحدار وكأنّه في خطر الانزلاق إلى نهر هادسن، فوق بابه لافتة زرقاء باهتة تعلن: متجر ريڤرَن للكتب. في الداخل كان هناك مكتبٌ غير مرتّب، ومتاهة من الرفوف المائلة، وزوبعة من فراشات العثّ وثلاث مئة ألف كتابٍ مستعمل. غادرناه بعد سبع ساعاتٍ حاملَين تسعة عشر باونداً من الكتب (وزنتها عندما وصلتُ إلى المنزل).

الآن عرفتم لماذا تزوّجت جورج! من وجهة نظري، تسعة عشر باونداً من الكتب العتيقة ألذّ بتسع عشرة مرّة على الأقلّ من باوند كافيار طازج. ربّما تفضّلون شمبانيا ڤيف كليكو لعيد ميلادكم لكن أعطوني (في الواقع

لا تستطيعون. لقد سبقكم جورج) نسخة ثمنها تسعة دولارات من كتاب ڤنسنت ستاريت: «*بخيلٌ بالمال، مبذّرٌ بالكتب*» تعود لعام 1929، وهو مديحٌ رقيقٌ لجمع الكتب ترد فيه العبارة التالية: «كلّ بحثٍ جديدٍ هو رحلةٌ نحو جزر الهند الغربيّة، تنقيبٌ عن الكنز المدفون، نزهة إلى آخر قوس قزح. لا يهمّ إن وجدت في النهاية جرّةً من الذهب أم كتاباً ممتعاً، ستلاقي دائماً أعاجيبَ على الطريق».

لا يحبّ كلّ الناس الكتب المستعملة. البقع، واللطخات، والخطوط تحت الأسطر، وبقايا التوست المتحجّرة التي تركها المالكون السابقون قد تنفّر القرّاء النيّقين كملابس داخلية مستعملة. في شبابي كنتُ أحبّ كتبي شابّة أيضاً، نسخاً بغلافٍ ورقيّ لم يمسسها أحدٌ هوامشها فراغٌ ناصع البياض ينتظر خربشاتي النرجسيّة. لقد كانت رخيصة بما يكفي كي لا تثير في نفسي شعوراً بالذنب إن كتبتُ عليها، وعديمة الملامح بحيث تتقبّل تشويهي لها دون احتجاج. في تلك الأيّام اعتقدتُ أنّ كتبي ستعيش للأبد تماماً مثلما اعتقدتُ أنّ الزمن سيشوّه أجساد الآخرين فقط ويعفّ عن جسدي... أخطأتُ في الحالتين. منشورات بنغوين التي اشتريتها في أيّام الجامعة تتفجّر بغمامةٍ من الغبار الحامضيّ كلّما تناولتها عن الرفوف بينما ما يزال «*بخيلٌ بالمال، مبذّرٌ بالكتب*» فاتناً في سنّ الثامنة والستّين، بهت لونه المخضرّ قليلاً، أمّا غلافه فظلّ متيناً.

بعد أن فقدت الأغلفة الورقيّة إغراءها، انتقلتُ إلى الكتب المستعملة. أوّلاً لأنّ الكتب الجديدة ذات الغلاف المقوّى كانت تفوق قدرتي على شرائها، وثانياً لأنّني وقعتُ في حبّ الكتب التي تُضَمّ ملازمُها بالخيط لا بالصمغ، والطباعةِ باستعمال القوالب المعدنيّة الحراريّة لا بالكمبيوتر، وصور المؤلّفين التي تحميها طبقة رقيقة جدّاً من الورق الشفّاف. بدأتُ أستمتع كذلك بكوني حلقة صغيرةً في سلسلةٍ طويلةٍ تداولت الكتاب ذاته. الإصدارات الأولى العذراء التي يقدّرها هواة جمع الكتب النادرة - لا ملاحظات، ولا تواقيع، ولا أسماء مالكين مكتوبة عليها - لا تثير اهتمامي.

أعتبر الهوامش مشاعاً أدبيّاً يوفّر مساحة للجميع، وكلّما كنّا أكثر عدداً كان الجوّ أمتع. في الواقع، الكتاب العتيق الوحيد الذي أقاربه بضيقٍ هو الذي ما تزال أوراقه ملتحمة: في عيد ميلادٍ سابق أهداني جورج كتاب «*أقصى الشمال*» لفيريتوف نانسِن الذي يروي في جزأين حوليّات مغامرته الفاشلة للوصول إلى القطب الشماليّ بالسفينة. استحوذ عليّ الاكتئاب وأنا أفصل حوافّ الأوراق التي كان بعضها ملتحماً مع بعض، فقد نُشر هذان المجلّدان الجميلان عام 1897 *ولم يقرأهما ولو شخصٌ واحد*، وانتابتني رغبة ملحّة بإعارتهما لأكبر عدد ممكن من الأصدقاء تعويضاً عن كلّ الملاطفات التي لم يحظيا بها خلال القرن الأوّل من عمرهما.

«يا حسرة!» كتب هنري وورد بيتشر[1] «الطبيعة البشريّة هي في أضعف حالاتها داخل متجر الكتب!». روحي قويّة نسبيّاً في متجر بارنز ونوبل، أعرف أنّي لو قاومتُ رغبتي بشراء كتابٍ في إحدى زياراتي واشتراه غيري، ستفقس مكانه نسخةٌ أخرى كبطّة بلاستيكيّة في حلبة رماية. ولو قاومتُ *تلكَ* النسخة أيضاً، ستظهر بطةٌ غيرها في يومٍ آخر. أمّا في متجر الكتب المستعملة فكلّ مجلّد فريدٌ من نوعه يستحيل تعويضه بنسخةٍ من مستودع الناشر ولا يطابق عيانيّاً بقيّة أشقّائه، تفرّدٌ تشكّل بالتدريج مع كلّ مالكٍ من مالكيه. إن لم أشتره على الفور قد لا يحالفني الحظّ بإيجاده مجدّداً، لذا - كبيتشر الذي اعتبر إغواء الخمر هامشيّاً أمام إغواء الكتب- أنا ضعيفة.

على الأقلّ، يضعني ضعفي بين صحبةٍ طيّبة. ساوذي[2] كما علّق أحدهم، لم يكن يستطيع المرور أمام كشك كتبٍ دون «أن يتفحّصه لدقيقة، حتّى ولو كانت العربة التي ستقلّه إلى هامستيد للقاء كوليريدج على وشك الانطلاق». أمّا ماكولاي[3] فقيل عنه «لا يسبقه أحد في

1- Henry Ward Beecher 1813-1887 قسّ أميركي ومصلح اجتماعيّ عرف بدعمه لإلغاء العبوديّة. م

2- Robert Southey 1774-1843 شاعر رومانسيّ إنجليزيّ وأحد شعراء البحيرة. م

3- Thomas Babington Macaulay 1800-1859 ذاته الذي ورد ذكره في الفصل 8. م

تسلّق سلّم وتفتيش أعلى رفٍّ بحثاً عن مطبوعات كواترو[4] أو شواهد أدبيّة غريبةً عن عصرٍ منقرض، وحين ينزل بعد ساعة وقد غطّاه الغبار وشباك العنكبوت يرسل لشراء كعكةٍ بدلاً من غدائه المعتاد». عندما كان جايمس لاكينغتون - وهو بائع كتب من القرن الثامن عشر- شابّاً، أرسلته زوجته عشيّة الكريسماس بنصف كراون لشراء عشاء العيد وكان ذلك كلّ ما يملكانه من مالٍ. لكنّه مرّ في طريقه بدكان كتبٍ قديمةٍ وعاد بكتاب يونغ[5] «*أفكار الليل*» لا بالطعام. «أعتقد أنّني تصرّفت بحكمة» أعلن لزوجته التي تتضوّر جوعاً «لو اشتريتُ طعاماً لأكلناه غداً وتبخّرت بهجتنا سريعاً، أمّا لو عشنا خمسين سنةٍ أخرى، سيظلّ «*أفكار الليل*» وليمتنا الدائمة».

عندما أدخل متجر كتبٍ جديدةٍ أطالب بالنظافة، وبشاشات الكمبيوتر، وبنظام فهرسةٍ أبجديّ دقيق. أمّا عندما أزور متجر كتبٍ مستعملةٍ فأنا أفضّل مالكاً لامبالياً، وقططاً غافية، وفوضى في المكان، ممّا يشحذ أحلامي الخياليّة بالعثور على نسخةٍ من تيمورلنك لإدغار آلن بو مثلاً، كالتي وجدها صيّاد سمكٍ تحت رزمة عقود زراعيّة في مخزن أنتيكات في نيوهامبشاير عام 1988 فاشتراها لقاء خمسة عشر دولاراً، ثمّ بيعت لاحقاً ذلك العام في مزاد سوذبي لقاء 198 ألف دولار. أضيف هنا أنّ الأشخاص الذين تملي عليهم تربيتهم ألّا يذكروا النقود في سياق حديثهم، لا يتردّدون عموماً بذكر ما دفعوه لقاء كتابٍ مستعملٍ إن اعتقدوا أنّهم قاموا بصفقة رابحة. لامب كتب إلى كوليريدج: «لقد اشتريتُ (*غودفري أوف بولن*) لفيرفاكس لقاء نصف كراون! هلّل معي»، وكتب إلى ساوذي: «ابتعتُ

4- من أقدم الكتب المطبوعة في أوروبا، تتمّ بطباعة النصّ 8 مرات على طبق ورق كامل مقسمة إلى 4 نصوص في كل جهة، ثمّ يطوى الطبق مرّتين إلى 4 صفحات ويقصّ فنحصل بالنتيجة على 8 صفحات لـ 8 كتب. م

5- Edward Young 1683-1765 شاعر وناقد لاهوتي وفيلسوف إنجليزي اشتهر بالكتاب المذكور. م

أيضاً كتاباً آخر لكورلز[6] بتسعة بنسات!!! يا للزمن! يا للقرّاء!». (قرأتُ صيحات لامب السعيدة في الجزء الأوّل من «*حياة وأعمال تشارلز لامب*» وهي نسخةٌ من إصدارٍ فاخرٍ لا تحمل تاريخاً، مزادنة بالرسوم التوضيحيّة ابتعتها لقاء خمسة عشر دولاراً. هللّوا معي!!).

مشكلتنا الوحيدة عند إحضار تسعة عشر باونداً من الكتب إلى البيت من المتجر في هاستينغز أون هادسُن، هي آلاف الباوندات من الكتب التي تُثقل رفوفنا أصلاً. مع مرور السنين، أصبحت شقّتنا أشبه بمتجر كتبٍ مستعملةٍ أكثر من كونها بيتاً. حلمتُ دائماً أن يصبح التغييرُ رسمياً، ألن يكون ممتعاً أن نغدو نحن تجّار كتب عندما يكبر طفلانا: «كولت وفاديمان، بيع وشراء كتبٍ مستعملة. المهترئة اختصاصنا»؟

يا حسرتي! الواقع صفعة مؤلمة. في عام 1936عنون جورج أورويل مقالة بـ «ذكرياتي في متجر كتب»، متحدّثاً عن أيّامه كموظفٍ في متجر كتبٍ مستعملة. ساعاتٌ طويلة، وبردٌ قارس، ورفوفٌ تستعمرها جثث الذبّاب الأزرق، وقسمٌ كبيرٌ من الزبائن كانوا مجانين. أسوأ ما في الأمر أنّ الكتب بحدّ ذاتها فقدت جاذبيّتها تدريجيّاً «في زمن ما، كنتُ حقّاً أحبّ الكتب»، قال أورويل «أحببتُ منظرها ورائحتها وملمسها إن كانت مطبوعة قبل خمسين سنة فأكثر. لا شيء أسعدني كابتياع كمّية ضخمةٍ منها لقاء شلن في مزادٍ ريفيّ... لكن عندما بدأت العمل في متجر الكتب توقّفت عن شرائها. عند رؤيتها بالجملة، خمسة أو عشرة آلاف نسخةٍ دفعة واحدة، أصبحت الكتب مملّة، بل وتبعث على الغثيان».

هل هو ردّ فعلٍ حتميّ، كما تفقد البوظة سحرها بالنسبة لكلّ العاملين في باسكن- روبنز، أم هو كما آمل مجرّد تشاؤمٍ أورويليّ؟ استشرتُ صديقي آدم، الذي أمضى كلّ أيّام السبت خلال ستّه الثانويّة الأخيرة وسنواته الجامعيّة الأولى في هارڤارد بالعمل في متجر كتب بانغلوس في كامبريدج. اعترف لي أنّه تخلّى عن أوهامه أيضاً.

6- Francis Quarles 1592-1644 شاعر إنجليزي. م

«بدأت أشعر بأنّ كتاباً بلا بيتٍ هو شيءٌ بلا معنى» قال. «وفي متجر كتبٍ، هذا كلّ ما لديك. صعقني ذاك الاستنتاج أثناء عملي، عندما ذهبنا إلى شقّة المؤرّخ جون كليف بعد وفاته عام 1990 كي نحزم مكتبته ونأخذها إلى متجرنا. لقد درّسني صفّاً عن الإمبراطوريّة البريطانيّة في ذلك الفصل لكنّه لم يكن محاضراً جذّاباً ولم أشعر بأنّني تعرفتُ عليه. فقط عندما رأيتُ رفوفه - روايات جايمس بوند بأغلفتها الورقيّة جنباً إلى جنبٍ مع محاضر البرلمان من القرن التاسع عشر- تشكّلت لديّ فكرةٌ عمّن كان كليف فعلاً. مقتنيات مكتبته قدّمته بطريقةٍ لم تفعلها محاضراته».

«أخذنا الكتب إلى المتجر ووزّعناها حسب الموضوع - التاريخ على اليسار، والأدب على اليمين، والفلسفة في الغرفة الخلفيّة - وبطريقةٍ ما، فجأةً، لم تعد الكتب هي جون كليف. تفكيك مكتبته كان بمثابة حرق جسده وبعثرة رماده في الريح. انتابني حزنٌ عارم. أدركتُ أنّ الكتاب يستمدّ قيمته من تواجده بين بقيّة الكتب التي يملكها شخصٌ ما، ويفقدها بضياع هذا السياق».

«وأنا أغادر العمل يومها، انتبهت أنّ المالك وضع واحداً من كتب كليف في صندوق الخمسين سنتاً الذي نتركه على الرصيف. كان نسخة صغيرةً لشكسبير تعود للعصر الإدواردي ذات تجليد فاقع وخطٍّ طباعيّ بشع. في الداخل، يدٌ يافعة لا بدّ أنّها يد كليف في سنواتٍ مراهقته أو بدايات عشرينياته خطّت اسمه واقتباساً من «*العاصفة*»: نحن المادة التي تُصنع منها أحلامنا، وحياتنا الصغيرة / تكتمل بالنوم».

سألته ماذا فعل بالكتاب.

- اشتريته وأخذته معي إلى بيتي. قال.

اقتراحات للقراءة

معظم متاجر الكتب المستعملة الجيّدة تحتوي رفّاً عنوانه: كتبٌ عن الكتب. عدم وجود رفٍّ مماثلٍ في متاجر الكتب الجديدة هو انعكاسٌ محبِط لتغيّر أذواق القرّاء، وفي الوقت نفسه يفسّر سبب نفاد طبعات الكثير من الكتب التالية، بعضها منذ أكثر من قرن.

كتابي المفضّل عن الكتب يدعى بالصدفة أيضاً *كتاب عن الكتب: تشريح الهوس بالكتب*، وهو مجموعة عملاقة أعدّها هولبروك جاكسون، ويرتكز في صيغته وأسلوبه على كتاب روبرت بورتون «*تشريح الميلانخوليا*». أعتبر عناوين الكثير من فصول هذا الكتاب (تجميع الكتاب المتأنّق، وأعراض حبّ الكتب، والثَّمل بالكتب مع انحراف النشوة) نفحاتٍ من الأفيون تغري المدمنين على الكتب بدخول وكرٍ سيخرجون منه بعد عدّة أسابيع مترنّحين من الخدر.

مجموعات أخرى مفيدة عن إغراء الكتب واقتباسات منها تتضمّن: *متعة القارئ* الذي أعدّه أيضاً هولبروك جاكسون، *الوجيز في حبّ الكتب* من إعداد ألكساندر إيرلاند، وكتب من إعداد جيرالد دونالدسون.

أنصح كذلك بأنطولوجيّات المقالات التالية حول الكتب والقراءة: *ديدان الكتب* لـ لورا فورمان وإلينور ستاندارد، *القراءة في السرير* لـ ستيفن جيلبر، *رومانسيّة الكتب* لـ مارشال بروكس. *أروع الكتب* لـ مايكل دوريس وإيميلي بوشوالد، *ما هو الكتاب* لـ دايل وارن، *حساءٌ لمحبي الكتب* و*أرجوحة دوّارة لمحبي الكتب* كلاهما من إعداد ويليام تارغ، *الرجال والكتب* لـ مالكوم. إس. ماكلاين وإليزابيث ك. هولمز، *ذوّاقة الأدب* من تأليف ليندا وولف،

وهو أنطولوجيا شهيّة عن الأدب المتعلّق بالطعام يكتمل بوصفة سمك الحفش المحشوّ بطريقة غوغول، وحساء جراد البحر على طريقة موباسات.

تاريخ القراءة لـ ألبيرتو مانويل، *تطوّر الكتاب* لـ فريدرك جي. كليغور، *مملكة الكتب* لـ ويليام دانا أوركَت الذي يضمّ معلوماتٍ تاريخيّة قيّمة.

بين الكثير من المجلّدات عن جمع الكتب، أنا مولعة على وجه الخصوص بـ *بخيلٌ بالمال، مبذّرٌ بالكتب* لڤنسنت ستاريت، *جنون لطيف* لـ نيكولاس أ. باسبانيس، وكذلك *ألف باء جامعي الكتب*، وهو قاموس كلاسيكيّ وضعه جون كارتر للمصطلحات المتعلّقة بالكتب لا غنى عنه لأيّ قارئ أراد دائماً أن يعرف الفرق بين الورقة الأخيرة الحرّة أو الملتصقة.

للباحثين عن الإلهام في القراءة جهراً أنصح بـ *تشارلز ديكنز القارئ* لتشارلز كِنت، *والغرفة الزرقاء* وهي مقالة سيرة ذاتيّة نشرها آدم غوبنك في *النيويوركر* ولأسباب لا أفهمهما لم تُنشر في أنطولوجيا. *القراءة جهراً* مقال من *حجم الأفكار* لـ نيكولسون بيكر تركّز على الأخطاء في الفنّ لذلك لا يمكن عدّها ملهمة لكن ينبغي قراءتها لأنّها طريفة جدّاً.

بالنسبة لموضوع ترتيب المكتبة، قرّاء هذا الكتاب يعلمون كم أحبّ *عن الكتب واستضافتها* لـ ويليام يوارت غلادستون.

أمّا المهتمّون بالتداخل بين الأدب والحياة فأنصحهم بـ *القارئ العاديّ*، *والقارئ العاديّ الثاني* لڤيرجينيا وولف.

ستّة مقالات عن الأدب والقراءة تركت لديّ انطباعاً لا يمحى:

«*عن 3 أنواع للتفاعل الاجتماعيّ*» من *مقالات* لـ ميشيل دو مونتانيه، و«*محاضرات 1808 عن مبادئ الشِّعر*» المحاضرة 3 من «*محاضرات 1808-1819 عن الأدب*» الجزء الأوّل لـ ساموِيل تايلور كوليريدج، و«*أفكار متفرّقة حول الكتب والقراءة*» من «*المقالات الأخيرة لإيليا*» لـ تشارلز لامب. و«*عن قراءة الكتب القديمة*» من «*المتحدّث العادي*» لـ ويليام هازلِت. و«*ذكريات متجر الكتب*» من «*عصرٌ كهذا*»، والجزء الأوّل من *مجموعة المقالات، والكتابات الصحفيّة، والرسائل* لـ جورج أورويل. و«*ترتيب مكتبتي*» من «*إشراقات*» لـ والتر بنجامين.

شكر وتقدير

منذ خمس سنوات هاتفني محرّرٌ يُدعى ستيفن جي. سميث ليسألني إن كنت أريد المشاركة في تأسيس «الحضارة». لم أفهم قصده فوراً واعتقدتُ لعدّة لحظات مدوّخة أنّني رومولوس العصر الحديث، أُنادى من مكتبي لأرضع من ذئبةٍ وأطرد البرابرة. الحقيقة، رغم أنّها طردت خيالاتي لكنّها ليست بعيدةً عنها، فقد بدأت أنظر إلى مجلّة الحضارة Civilaization - وهي مجلّة مكتبة الكونغرس- خلال فترة عملي السعيدة هناك كنوعٍ من المدينة الفاضلة. صحيحٌ أنّ الأخطاء النحويّة كانت تدكّ بواباتنا وكنّا نسمع تلاطم قرونها تضرب أسوارنا، لكنّ جدراننا متينة ومدينتنا الصغيرة بأمان.

عندما قلت لستيف سميث إنّني أريد كتابة عمود بعنوان: «القارئ العاديّ» أجابني بتسرّع: نعم. وطلب منّي أن أنسى الريبورتاجات وأن أكتب عن نفسي وعن عائلتي، وهو أمرٌ أفزعني في البداية لكنّه فتح أمامي آفاقاً جديدة. المقالات التي كتبتها تحوّلت إلى هذا الكتاب، بعد أن غيّرتُ عناوين بعضها أو أضفتُ عليها أو عدّلت فيها. قام ستيف بتحرير معظمها بدقّة واحتراف جعلاني أرغب أحياناً بنبذ كلماتي الخاصّة ونشر هوامشه عوضاً عنها.

أريد أن أشكر أسرة مجلة سيڤلايزاشن: ليا إدموندز، وغريتشن إرنستر، وراشيل هارتيغان، وإليزابيث هايتاور، وآرون ماتز، وكاتي أوهاليران، وديانثا باركر، وداڤيد ڤاين، وتشارلز ويلسون الذين قاموا بالتحرّي عن الوقائع الغريبة والتأكد من صحّتها.

وليام ميلز من معهد سكوت للدراسات القطبيّة في كامبريدج، إنجلترا زوّدني بالمعلومات عن قاعدة روبرت فالكون سكوت في القطب الجنوبيّ، وكارولاين شادويك من مركز فنون الكتب في نيويورك أوضحت لي كيف تمّت طباعة وتجليد الكتاب الذي ورثته عن جدّتي الكبرى. أشكر بي. جي. ويليامز من مكتبة سانت دينيول في هاواردن، ويلز الذي أرسل لي مادّة مفيدةً عن مكتبة دبل يو. إي. غلادستون.

في فارار، وشتراوس، وجيرو كنت محظوظة بالانضواء تحت الرعاية الكريمة للمحرّرين جوناثان غلاسي وناتاشا ويمر. سوزان ميتشل وجوناثان ليبنكوت جعلا هذا الكتاب يبدو أجمل من الداخل والخارج. بعد أن قامت كارلا رغانولد بتدقيقه أدركتُ أنّني لست بارعة كمدقّقة لغويةٍ ولا كنحويّة كما كنتُ أظنّ. آدم غودهارت حرّر بحذق عدّة مقالات واقترح نقاطاً، كما أمضى ساعات لا تحصى بالحديث معي حول الكتب.

الكثير من الأصدقاء أيضاً اعتادوا على اتصالاتي: «هل تثني زوايا الكتاب الذي تقرؤه؟»، «هل تعرف معنى *opopanax*؟». «ما هي الكتب الفاضحة التي سرقتها من رفوف والديك؟». بيل آبرامز، وروس بومان، وتشارلز بِل، ولورنس بيرغرين، وجون بيثل، وسارة بيثل، وليزا كولت، وساندي كولت، وبايرون دوبل، ولارز إينغل، وروب فرانسورث، وكامبل غيزلن، وإريك غيبسون، وباولا غلاتزر، وبيتر غرادجانسكي، وماغي هيڤنور، وكاثي هولب، ورووندا جونسون، وبيبي كارمل، وسوزان ماكارثي، وتشارلي مونهايم، ومارك أودونل، ودان أوكرنت، وجولي سالامون، وكاثي شوللر، وكارول ويتمور، وشيري ينغست جميعهم أجابوا عن أسئلتي بكرم. جون بلاكمان ومود غليزون كلاهما قدّما أكثر مما طلبت وكانا ألطف من أن يتذمّرا. غاري هوڤلاند، وروبرت ليشر، وبرايان ميللر، وباربرا كورمبي، وكارول ساندڤِك، وفرانسيس ستيد سللرز، وخصوصاً مونيكا غريغوري قدّموا لي يد المساعدة بطرق

عديدة. صديقاي العزيزان جاين كوندون و لو-آن ووكر شجّعاني من البداية إلى النهاية كما هو عهدهما منذ عشرين عاماً.

محور هذا الكتاب هو عائلتي. آمل عندما يكبر طفلاي أن يسامحني هنري لأنّني كشفتُ كيف أكل جزءاً من «*تصبح على خير يا قمر*»، وأن تتعافى سوزانا من صدمة إفشائي لظنّها أنّ «*الأرنب يرتاح*» قصة عن أرنب نائم. أحد أكثر الأمور التي تسعدني كأم هي رؤية وجه طفليّ عندما يفتحان كتاباً جديداً للمرّة الأولى.

زوجي، جورج هاو كولت، وأنا غازلنا واحدنا الآخر بالكتب وتزوّجنا مكتبتينا بزواجنا أيضاً. كم أنا محظوظة بكوني مع الاثنين! أعطى جورج انتباهه الدقيق والحكيم كمحرّر لكلّ كلمةٍ في «*من كتبي*»، وألهمني معظمه. والأهم، سواء كنّا في غراند كانيون أو شقّتنا المكتظة بالكتب في نيويورك أنّه عاش معي كلّ ما مررت به. ما كتبه لي في إهداء واحدٍ من كتبه أردّه له هنا بحبٍّ يتنامى: «هذا أيضاً كتابك، مثلما حياتي أيضاً هي لك».

بدأت علاقتي مع الكتب كعضو في جامعة فاديمان، فريق الأربعة المغرور الذي لم يفوّت حلقة من كوليج باول، وما يزال يصحّح قوائم الطعام. إن صنّفتُ متعَ الحياة، النقاش عن الكتب مع أخي ومع والديّ يتوضّع في أعلى القائمة. كيم يظهر باستمرار في هذه المقالات، علاوةً على أنّه قرأ كلّ كلمةٍ في المسوّدة واقترح عدّة اقتراحات مفيدة. أمّي وأبي، اللذان أهدي كتابي لهما، قرآ لي عشرات آلاف الصفحات عندما كنتُ طفلة ناقلين شغفهما بالكتب إليّ مع كلّ كلمة. كان سهلاً عليهما، كون كليهما كاتبين، أن يسحقا آمالي الأدبيّة الناشئة بإنجازاتهما التي لا تضاهى، لكنّهما استطاعا أن يقوما بالعكس. دونهما لم أكن لأصبح قارئة ولا كاتبة. أشكرهما على ذلك وعلى الكثير من الهدايا الأخرى.

لأولئك الذين تدفعهم شهيّتُهم للكلمة المكتوبة إلى قراءة كلّ ما تقع عليه أعينُهم، أو الذين يدلّلون كتاباً قديماً كما يداعبون أطفالهم، أو مَن تفتنهم رائحةُ الورق والحبر "من كتبي: اعترافاتُ قارئةٍ عاديّة" يقدّم رحلةً ميدانيّةً مشوّقةً إلى عالم الثقافة وهوس القراءة. آن فاديمان، الفائزة بجائزة National Book Critics Circle Award والمحرّرة في مجلّة The American Scholar، تقدّم لنا الكتبَ من خلال عينيّ القارئة - لا الكاتبة - كعشّاق من لحم ودم أحياناً، وأحياناً كأداة لتثبيت الباب، وأحياناً أخرى كوجبة خفيفة للأطفال الجائعين. "من كتبي" هو كتاب عن الكتب يدعونا لاستكشاف ذاتِنا العاشقةِ للقراءة من وجهة نظر مختلفة، تتنقّل فاديمان فيه بأناقة ومرح ما بين عادات عشّاق الكتب الغريبة، إلى الطرائف عن المؤلّفين، وإلى ذكريات عنها وعن عائلتها.

" من كتبي: اعترافاتُ قارئة عاديّة" هو احتفاءُ القارئ الأصيل بالكتب التي أصبحت فصولاً من حياته.

ISBN 978-9933-6173-3-2